أعلام مصر

رقم مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ
١	حسن العطار	١١٨٠-١٢٥٠هـ
٢	محمد أبو الفتح	١٢١٧-١٢٩٤هـ
٣	محمد الأشمونى	١٢١٨-١٣٢١هـ
٤	إبراهيم مرزوق	١٢٢١-١٢٨٣هـ
٥	محمد عياد الطنطاوى	١٢٢٧-١٢٨٠هـ
٦	على الليثى	١٢٣٦-١٣١٣هـ
٧	محمد الطنطاوى	١٢٤١-١٣٠٦هـ
٨	محمد العباسى المهدى	١٢٣٤-١٣١٥هـ
٩	أحمد أبو الفتح الدمنهورى	١٢٤٣-١٣١٠هـ
١٠	زين المرصفى الشافعى	١٢٤٤-١٣٠٠هـ
١١	حسن عبد الباسط الحُوَىّ	١٢٤٥-١٣٠٠هـ
١٢	رضوان محمد المخللاتى	١٢٥٠-١٣١١ هـ

رقم مسلسل	أسماء الأعلام	التاريخ
١٣	حسن الطويل	١٢٥٠-١٣١٥هـ
١٤	مصطفى السفطى	١٢٥٠-١٣٢٧هـ
١٥	أحمد الرفاعى	١٢٥٠-١٣٢٥هـ
١٦	على محمد البيلاوى	١٢٥١-١٣٢٣هـ
١٧	حسونة النواوى	١٢٥٥-١٣٤٣هـ
١٨	عبد الله نديم	١٢٦١-١٣١٤هـ
١٩	محمد عبده	١٢٦٦-١٣٢٣هـ
٢٠	أحمد أبو خطوه	١٢٦٨-١٣٢٤هـ
٢١	أحمد مفتاح	١٢٧٤-١٣٢٦هـ
٢٢	محمد أكمل	١٢٨٠-١٣٤٣هـ
٢٣	محمد الإدريسى	١٢٩٣-١٣٦٤هـ
٢٤	عبد الحميد نافع	

حسن العطار

١١٨٠ هـ — ١٢٥٠ هـ

هو العلامة شيخ الإسلام الشيخ حسن بن محمد العطّار المصرى ، المولود بالقاهرة فى حدود سنة ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ م . ونشأ بها فى رعاية والده الشيخ محمد كتن . سمع من أهله أنه مغربى الأصل . قدم بعض أسلافه مصر واستوطنوها ، وكان والده عطاراً صغيراً له إلمام بالعلم .

وكان فى أول أمره يستصحبه إلى الدكان ، ويستخدمه فى صغار شئونه ، ويعلمه البيع والشراء . ولشدة ذكائه وحدّة فطنته كان يميل إلى التعليم ، وتأخذه الغيرة عند رؤية أترابه يتردَّدُون إلى المكاتب ، فكان يختلف إلى الجامع الأزهر لحفظ القرآن الكريم .

ولما رأى والده فيه هذه الرغبة إلى التعلم ، ساعده حتى أتم حفظ القرآن فى مدة يسيرة ، ثم أقبل على طلب العلم ، وجدّ فى التحصيل على كبار المشايخ كالشيخ الأمير والشيخ الصبان وغيرهما ، حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل ما هيأه للتدريس ، وزادت رغبته فى التزود بكثير من العلوم المختلفة ، فعكف على دراستها وأتقنها .

ولما دخل الفرنسيون مصر غادر القاهرة مع جماعة من العلماء إلى الصعيد ،

ثم عاد إليها إبان احتلالهم الممقوت ، فقرّبوه منهم ، واتصل بعلمائهم ، فأفادهم واستفاد منهم . وكان يتنبأ لمصر بتقدّم عمرانيّ وثقافيّ .

ثم سافر إلى الشام ، وأقام بدمشق بالمدرسة البدرية زمناً ، ومدحها بقصيدة أوّلها :

بوادى دِمَشْقِ الشام جُزْ بى أخا البَسْطِ وعَرِّجْ على باب السَّلام ولا تُخْطِى
ولا تبكِ ما يبكى امرؤُ القيس حوملاً ولا منزلا أوْدَى بِمُنْعَرَج السِّقْطِ
فإنّ علَى باب السلام من البَهَا ملابسَ حُسْنٍ قد حُفِظْنَ من العَطِّ
هنالك تلقَ ما يروقُكَ مَنْظَراً ويُسْلِى عن الأخْدَانِ والصَّحْب والرهطِ

ومنها :

وقِفْ بى بجسر الصالحيّةِ وقفةً لأقْضِى لُبَانَاتِ الهوَى فيه بالبَسْطِ
وعرِّج على باب البريد تجِدْ به مراصِدَ للعُشَّاق فى ذلك الخطِّ
وحاذر سُوَيْعَاتِ العمارة إنها مهالكُ للأموال تأخذُ لا تُعْطِى

إلى أن قال :

وعندى من التأليف شىء وضعتُه على شرح قانون الحفيد أخى السِّبْطِ
ثلاثُ مقالاتٍ كبارٍ وضعتُها لتعريف حال الكَىِّ والفَصْدِ والبَطِّ
وجزءٌ على شرح المبرِّد كامل أبيِّنُ فيه غامضَ النَّص بالقطِّ
وألّفتُ فى علم الجراحة نُبْذَةً لتعريف أكل الفول بالقطع والخطِّ

ومن شعره :

إنى لأكرهُ فى الزمان ثلاثةً ما إن لها فى عدّها من زائدِ
قربَ البخيل ، وجاهلاً متفاضلاً لا يستحى ، وتودُّداً من حاسدِ
ومن الرزيّةِ والبليـــّة أن ترى هذى الثلاثةَ جُمِّعَتْ فى واحـــدِ

ومن خطه فى بعض مجموعاته : « اتفق لى أنى بعد قضاء حجّى توجّهتُ مع الركب الشامى ، فوصلت إلى « معان » . ثم لبادة « الخليل » ، فأقمتُ بها نحو عشرة أيام ، ثم توجّهت إلى القـدس الشريف ، فنزلت بدار نقيبها السيد عمر أفندى ، وكان معزولا عن نقابة الأشراف ، ومن عادته الاحتفال بالموسم الموسوىّ ، وإطعام الفقراء ، وقبل حلول الموسم بيومين أُعيد إلى نقابة الأشراف ، فنظمت قصيدة تهنئة له بعود المنصب :

الحمـــد لله على فضـــله من بعد أن أُشفِقَ من محلهِ
قد يطلب الحسناءَ من لم يكنْ كفؤاً لها للحُمْق فى عقْلهِ
فمنصبُ المـــرء قرينٌ لهُ والشّكلُ مجذوبٌ إلى شَكْلهِ

وبقية القصيدة فى الجزء الرابع من « الخطط التوفيقية » جزء ٤ ص ٢٩ .

ثم سافر إلى «استانبول» وأقام هناك مدة ، وتأهل بها وأعقب ولم يبق عقبه . ولم يزل مشتغلاً بالإفادة والاستفادة حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة ، وأقرَّ له علماءُ عصره بالانفراد ، وعقد مجلساً لقراءة تفسير البيضاوى . وقد مضت مدة على هذا التفسير لا يقرؤه أحد ، فحضره أكابر المشايخ ، والتفّوا حول دروسه .

ولمّا حضر إلى مصر فى سنة ١٢٣٧ هـ « بطرس البستانى » مدحه بقصيدة منها :

أمـــا الذكاء فإنـــه أذكى وأبرع من « إياسه »
أضحى « البديع » رفيقـه لمـــا تفرد فى « جناسه »
فى أى فن شئته فكأنه بانى أساســـه

وكتب عنه معاصره الشيخ محمـد شهاب الشاعر قال : « كان آية فى حدة النظر وشدة الذكاء ، وكان يزورنا ليلا فى بعض الأحيان فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تعسر قراءته فى وضح النهار فيقرأ فيه على ضوء السراج ، وربما استعار منى الكتاب فى مجلدين فلا يلبث عنده إلا أسبوعاً أو أسبوعين ويعيده إلىّ وقد استوفى قراءته وكتب فى طرره على كثير من مواضعه . »

وكان معاصراً له مؤرخ مصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وقـد ذكره فى تاريخه لمناسبة إعادة الشيخ شامل أحمد رمضان إلى مشيخة رواق الطرابلسية وامتداح الشيخ العطار له ، وكان صديقاً له ، بقصيدة أولها :

انهض فقد ولت جيوش الظلام وأقبل الصبح سفـــير اللثام
وغنت الوُرق عـــلى أيكها تنبه الشَّرب لشُرب المـدام
والزهر أضحى فى الربى باسماً لمـا بكت بالطـل دمـع الغمام

مشيراً إلى أنها من قصيدة فى ديوان الشيخ جاء فى آخرها :

بشراك مولانا عـلى منصب كان له فيك مزيد الهيـــام
وافاك إقبـــال به دائمـاً وعشت مسعوداً بطول الدوام
فقـــد رأينا فيك ما نرتجى لا زلت فينـــا سالماً والسلام

وعندما وصف الجـبرتى النكبة التى حلت بالأزبكية ودورها المحـرقة

بالبركة وبأطرافها عند احتلال الفرنسيين قال : « وصارت كلها تلالا وخرائب كأنها لم تكن مغنى صبابات ، ولا مواطن أنس ونزهات » واستشهد بقول العطار فى وصفها إبان ازدهارها . وهذه عبارته (ص ٣٧ ج ٣ الجبرتى) :

« وفيها يقول صديقنا العلامة والنحرير الفهامة حسن العطار حفظه الله :

« وأما بركة الأزبكية فهى مسكن الأمراء ومواطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال ، العديمة المثال ، فترى الخضرة فى خلال تلك القصور المبيضة ، كثياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السروج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل حتى كأنه من النشوة مخمور . ولطالما مضت لى بالمسرة فيها أيام وليالى ، هن سمط الأيام من يتيم اللآلى . وأنا أنظر إلى انطباع صورة البدر فى وجناتها ، وفيضان لجين نوره على حافاتها وساحاتها ، والنسيم بأذيال ثوب مائها الفضى لعّاب ، وقد سل على حافاتها من تلاعب الأمواج كل قرضاب ، وقام على منابر أدواحها فى ساحة أفراحها مغردات الطيور ، وجالبات السرور ، فلذيذ العيش بها موصول . »

وكانت روضة مصر فى عصره مزدهرة ، وحولها دور العظماء والعلماء ، وندواتهم ومكتباتهم ومتنزهاتهم . وفيها يقول العطار :

بالأزبكية طابت لى مسرات ولذّ لى ببديع الأنس أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها الممرات
وقد أدير بها دور مشيدة كأنها لبدور الحسن هالات
مدت عليها الروابى خضر سندسها وغردت فى نواحيها حمامات

والماء حين سرى رطب النسيم به وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقهـــا نقط من فضة ، واحمرار الورد طعنات
مراتع لظبـاء الترك ساحتها وللأسود بها فيهن غيضات
وللنديم بها عيش تجـــدده أيدى الزمان ولا تخشى جنايات
يروح منها صريع العقل حين يرى على محاسنها دارت زجاجات
وللرفاق بها جمـــع ومفترق لما غدت وهى للنُدمان حانات

بهذا الأسلوب الرائق وهذا الشعر الفائق يصف العطار بركة الأزبكية ، ولا عجب فهو مصرى أولا وقاهرى تربى بالقاهرة ، فرق خياله ، ونعم بجمال البركة الذى فتن كل من رآها فتغنى بجمالها .

ظل الشيخ حسن مصدر إشعاع لمختلف العلوم إلى أن ولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ محمد الشنوانى فى سنة ١٢٤٦ هـ فزانها وشرفها ، وظل شيخاً للأزهر إلى أن توفى فى آخر سنة ١٢٥٠ هـ وترك مؤلفات قيمة ، منها ما دوّنه طيب الذكر يوسف سركيس فى معجم المطبوعات العربية بعد أن ترجم للشيخ ، وهى :

إنشاء العطار — فى المراسلات والمخاطبات وكتابة الصكوك والشروط مما يحتاج إليه الخاص والعام . وقد طبع عدة طبعات . وهو مؤلف صغير الحجم كبير الفائدة ، يشهد له بدقة الملاحظة وقوة الأسلوب ، وفيه الكثير من أشعاره .

حاشية العطار — على التذهيب للخبيصى ، شرح التهذيب ،

وبهامشها الشرح المذكور وحاشية ابن سعد (منطق) — طبع ببولاق سنة ١٢٩٦ هـ .

حاشية العطار — على شرح إيساغوجى لأثير الدين الأبهرى . وبالهامش الشرح المذكور (منطق) طبع سنة ١٣١١ هـ .

حاشية العطار — على جمع الجوامع ، ثلاثة أجزاء ، طبع مصر .

حاشيته على متن السمرقندية (بلاغة) طبع بالدهينة سنة ١٢٨٨ هـ .

حاشيته على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهرى (نحو) طبع عدة طبعات بمصر .

حاشيته على شرح المقولات المسمى بالجواهر المنتظمات فى عقود المقولات كلاهما للشيخ أحمد السجاعى ، طبع بمصر سنة ١٢٨٢ هـ .

منظومة العطار فى علم النحو — فى مجموع من مهمات الفنون ، طبع سنة ١٢٨٠ هـ .

وقد زاد المغفور له على باشا مبارك على ذلك من مؤلفات العطار : رسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط ، ورسائل فى الرمل والزايرجة والطب والتشريح وغير ذلك . وذكر أنه كان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية .

وحدث الشيخ إبراهيم السقا أحد تلاميذه : أن بعض سكان مكة المكرمة ، المارين بمصر ، أعجبهم علم الشيخ العطار ، فأحبوا أن يقيم بينهم ليخلف فيهم « ابن حجر الهيتمى » وينتفعوا به وبعلمه ، فاجتمعوا به ، وما زالوا يحسنون له الرحلة حتى أجاب ، وأخذ فى تجهيز نفسه ، وسمع تلاميذه بذلك ،

فاشتد أسفهم ، ولم يكن فيهم من يجرؤ على منعه ، قال : فاحتلت بأن أخرجته بعد الدرس من صحن الأزهر ، ونحن فى حَمَارَّةِ القَيْظ ، وأخذت أسأله بعض المسائل ، وأخرج من واحدة لأخرى ، وهو يرفع رجله ويضعها من شدة حر البلاط ، حتى تبين لى الضجر فى وجهه وانتهرنى ، فقلت : ياسيدى أنت لا تطيق حر الشمس وأنت بمصر ، فكيف لك بالحر فى مكة وهو هناك أضعاف ما هنا ؟ ففكر ثم جزانى خيراً . وفترت همته عن السفر .

وحدث أيضا الشيخ السقا قال : بينما نحن فى درسه إذ وقف على الحلقة رجل أعجمى بشع المنظر فى منطقته خنجر ، ثم (رطن) مع الشيخ بلغة لم نفهمها ، وكلما طال الكلام ازداد الرجل حنقا وحدة ، فترك الشيخ كراريسه وقال : أنا محتاج لتجديد وضوئى ـ ثم ذهب ولم يعد ، وانصرفنا ، وتبين لنا أنه من أقارب زوجته التى تزوج بها فى بلاد الترك ثم تركها ، فأخبرنا هو أن الرجل كان يتهدده بالقتل .

وكان الشيخ العطار عالماً جليلا ذائع الصيت فى مصر وسائر الأقطار العربية والشرقية ، وأديباً فريداً ، وشاعراً مجيداً . وكان مع ما اتصف به من حميد السجايا وطيب الخلال متواضعاً كريماً زاهداً وجيهاً أينما توجه وحيثما أقام ـ رحمه الله وأجزل مثوبته .

الشيخ حسن العطار [١]

رائد البعث الأدبى فى مصر الحديثة

الشيخ حسن العطار هو حسن بن محمد كتن المولود بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ ١٧٦٦ م على أرجح الأقوال . وهو يرتد إلى أصول مغربية . وقد اتصل بالفرنسيين اتصالا علمياً ، كما اتصل بمحمد على ، وولى تحرير « الوقائع العربية » بين (١٢٤٤ — ١٢٤٦ هـ — ١٨٢٨ — ١٨٣٠ م) ومشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ وظل فيها حتى توفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٥ م) .

وكان أبوه عطاراً فقيراً له إلمام بالعلم ، وكان يستصحبه إلى الدكان ويستخدمه فى صغار شئونه ، ومن هنا جاءه لقب العطار . وكان يميل إلى التعلم وتأخذه الغيرة عند رؤيته أترابه يترددون إلى المكاتب ، فكان يختلف إلى الجامع الأزهر خفية حتى قرأ القرآن فى مدة يسيرة ، فلما علم أبوه بذلك بارك اتجاهه وشجعه ، فجد فى التحصيل حتى بلغ من العلوم فى زمن قليل مبلغاً تميز به ، واستحق التصدى للتدريس ، لكنه مال إلى الاستكمال ، فاشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها .

والواقع أن مفتاح شخصية العطار يكمن فى حبه الأصيل للعلم . وكلف العطار بالمعرفة والتعلم هو الذى جعله فذا بين أقرانه تلميذاً وأستاذاً ، وهو الذى صاحبه فى كافة مراحل حياته وجعله حدثاً فى عصره .

---

(١) وقد عثرنا على ترجمة أخرى له بهذا العنوان بقلم الأديب الكبير الأستاذ سامى بدراوى — نشرها فى (المجلة) التى تصدر فى القاهرة . فأثبتناها بنصها .

كان الرجل قارئاً نهماً ، وكان إلى ذلك يحسن الانتفاع بما يقرأ ، حتى اشتهر عنه ذلك ، فإلى جانب النص السابق الذى يسجل أنه كان ميالا إلى الاستكمال مشتغلا بغرائب الفنون والتقاط فوائدها نجد أحد أصدقائه ، الشيخ محمد شهاب يقول : « إن الشيخ العطار كان آية فى حدة النظر وشدة الذكاء ، ولقد كان يزورنا ليلا فى بعض الأحيان فيتناول الكتاب الدقيق الخط الذى تتعسر قراءته فى وضح النهار فيقرأ فيه على نور السراج وهو فى موضعه ، وربما استعار منى الكتاب فى مجلدين فلا يلبث عنده الأسبوع أو الأسبوعين ويعيده إلىّ وقد استوفى قراءته وكتب فى طرره على كثير من مواضعه » .

وقد اتصل العطار بالفرنسيين إبان الحملة ليعلم أحدهم اللغة العربية ، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم فيما يقول على مبارك ، وقد أشار العطار نفسه إلى ذلك فى مقامته إن جاز أن نعتبرها مصدراً ، وإن غضضنا الطرف عن فكرة أنه ساقها على لسان راو صديق ، يقول فى موضع منها معدداً الكتب التى رآها عند الفرنسيين : « وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية ، وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية » ، وفى موضع آخر من نفس المقامة يشير إلى حب الفرنسيين للفلسفة وحرصهم على اقتناء كتبها وإعمال الفكرة فيها .

وإلى جانب صلة العطار بالفرنسيين فى مكتباتهم ومصانعهم ، فقد كان للعطار ولع بقراءة الكتب المترجمة عن اللغات الأوربية ، خاصة فى علمى التاريخ والجغرافيا حتى اشتهر عنه ذلك ، والعطار نفسه يقول فى هذا المنبع من منابع ثقافته :

« وقع فى زمننا أن جلبت كتب من بلاد الأفرنج ، وترجمت باللغة التركية والعربية ، وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة اطلعنا على بعضها ، وقد تتحول تلك الأعمال بواسطة الأصول الهندسية والعلوم الطبيعية من القوة إلى الفعل ، وتكلموا فى الصناعات الحربية والآلات النارية ومهدوا فيها قواعد وأصولا حتى صار ذلك علماً مستقلا مدوناً فى الكتب ، وفرعوه إلى فروع كثيرة ، ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة فى رياض الفهم » .

وإلى جانب اتصال العطار بالثقافة الغربية عن طريق الاحتكاك المباشر أولا ، ثم عن طريق الكتب المترجمة ، فإن الرجل قد توفرت له وسيلة ثالثة : هى الرحلة ، إذ ذهب إلى الشام وفلسطين وتركيا ، « ولم يزل مشتغلا بالإفادة والاستفادة حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة ، وأقر له علماء مصر بالانفراد » .

وليس واضحاً فى كل ما كتب عن الشيخ العطار سبب هذه الرحلة ، ولكن يبدو أنه اضطر إليها بعد أن ساءت علاقاته بالفرنسيين .

فلما عاد العطار إلى مصر فى عهد محمد على ، عاد موسوعياً فى ثقافته وعلمه ، يطاول علماء الأزهر الأفذاذ ، ويمتلىء حماسة لتطوير البلاد وإصلاح أحوالها . ويمكن إجمال جهود العطار الإصلاحية فى ثلاثة ميادين هى : التعليم والثقافة ، ثم الأدب واللغة ، ثم السياسة .

أما فى مجال التعليم والثقافة ، فقد اتخذت جهود الرجل عدة مظاهر :

أولها أنه جعل ينبه الأزهريين فى عصره إلى واقعهم الثقافى والتعليمى ، ويبين ضرورة إدخالهم المواد الممنوعة كالفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية ، كما يبين ضرورة إقلاعهم عن أساليبهم فى التدريس ، ووجوب الرجوع إلى الكتب الأصول وعدم الاكتفاء بالملخصات والمتون المتداولة ، ويتوسل إلى ذلك بكل وسيلة . يقول مبيناً الفارق بين علماء عصره والعلماء الأفذاذ الذين عرفهم العالم العربى قبل عصر العطار ، ومحطما أكذوبة تحريم الدين الإسلامى لبعض العلم :

« .. من تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدى لتراجم الأئمة الأعلام ، علم أنهم كانوا — مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية والأحكام الدينية — لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم ، وإحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى فى كتب المخالفين فى العقائد والفروع .. ثم هم مع ذلك ما خلوا فى تثقيف ألسنتهم وترقيق طباعهم من رقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ..

وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه — علم أن نسبتنا إليهم كنسبة عامة زمانهم ، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم بدون أن نخترع شيئاً من عند أنفسنا ، وليتنا وصلنا إلى هذه المرتبة ، بل اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ألفها المتأخرون والمستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا إلى النظر فى غيرها حتى كأن العلم انحصر فى هذه الكتب ، فلزم من ذلك أنه إذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام تخلصنا منه بأن هذا كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى « جمع الجوامع » فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا هذا من علوم أهل

البطالة . وهكذا فصار العذر أقبح من الذنب .. وهذه نقطة مصدور » .

وقد بدأ العطار يخرج على هذا الجمود العلمى الأزهرى بتدريسه المواد الممنوعة . إذ بدأ يدرس الجغرافيا والتاريخ فى الأزهر وخارج نطاق الأزهر . كما كان تلميذه محمد عياد الطنطاوى يدرس الأدب فى الأزهر بإيحاء العطار وتحت إشرافه فى « مقامات الحريرى » حوالى سنة ١٨٢٧ م . كما بدأ تلميذه رفاعه الطهطاوى أيضاً يدرس الحديث والسنة بطريق المحاضرة وبلا نص ، مما كان مثار إعجاب العلماء . وفى الخطط التوفيقية أن العطار « عقد مجلساً لقراءة تفسير البيضاوى ، وقد مضت مدة على هذا التفسير لا يقرؤه أحد ، فحضر ، أكابر المشايخ ، فكانوا إذا جلس للدرس تركوا حلقهم وقاموا إلى درسه » . ولعله بذلك يكون قد بدأ ما لجأ إليه الأفغانى ومحمد عبده من إعادة تفسير القرآن فى ضوء الظروف المعاصرة . والمهم أن هذا النص يدل على أن التربة من حول العطار لم تكن مواتاً تماماً ، فإن قيام زملائه الشيوخ إلى حلقته ، مع اشتداد معارضتهم له ونقمتهم عليه لنزعته التجديدية وحملاته على تقصيرهم العلمى ، لهو أمر له دلالته ، كما أنه وثيقة تشهد بمقدرة هذا العالم الفذ .

فكأن الشق الأول من دعوة العطار الإصلاحية ، كان يتمثل فى مناداته بضرورة تطوير التعليم الأزهرى من حيث المناهج ومواد الدراسة ، وذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية وبتدريس المواد الممنوعة ، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بالدعوة إلى ضرورة بعث التراث العربى القديم . وهى دعوة حاول العطار نفسه الإسهام فى تنفيذها ، إذ لم يكن يكف عن البحث والتنقيب فى

هذه المراجع القديمة ، وإشراك خاصة تلاميذه فى ذلك . ولقد كان الأزهر أكبر المعاقل العلمية فى ذلك الوقت ، فحديث العطار عن التعليم الأزهرى وقصوره حديث عن الحالة الثقافية عامة فى البلاد .

المظهر الثانى لحركة الشيخ العطار التجديدية فى مجال الثقافة والتعليم يتمثل فى دعوته إلى إدخال العلوم العصرية ، وعبارته فى ذلك معروفة « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . والشيخ العطار لم يقتصر فى دعوته على مجرد التبشير بأفكاره الإصلاحية ، إنما هو يردف القول بالعمل ، فإلى جانب تدريسه وتأليفه فى العلوم العربية نجده يكتب فى المنطق والفلك والطب والطبيعة والكيمياء والهندسة ، يتضح ذلك من قائمة مطبوعاته ، ومن إشاراته إلى إعجابه بما رأى عند الفرنسيين وخاصة تحويلهم علومهم إلى عمل . وفضلا عن ذلك فإن استعراض قائمة مطبوعات بولاق حتى سنة ١٨٣٥ تدل على أن عدداً وافراً من المطبوعات فى جميع المواد المذكورة كان قد طبع . بل إن العطار كان يتردد على المرصد الذى أنشأه الفرنسيون ، كما « كان يرسم بيده المزاول النهارية والليلية » . وقد حفلت شروح الرجل وحواشيه على الكتب المختلفة بتعليقات فى كافة العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية .

والجانب الثانى من جوانب حركة العطار هو التطوير الأدبى . وقد مر بنا أنه أفلح فى إدخال الدراسة الأدبية إلى الأزهر على يدى تلميذه الطنطاوى ، كما أنه هو نفسه قد اعتنى بالأدب عناية خاصة . فلم يكن يتحرج من إنشائه ،

أو تدريسه ، ويبين عدم تعارض ذلك مع وقار العلم أو جلال الدين ، مستشهداً بالأسلاف العظام .

كان العطار يكتب النثر وينظم الشعر ، ويشجع تلاميذه على ذلك ، حتى إن جمال أسلوبه كان سر اختياره أول محرر للوقائع العربية . وقد كتب العطار مقامة على النسق القديم ، وإن كان موضوعها حديثاً ، فهى تدور حول علاقته بالفرنسيين وانتفاعه بمكتبتهم . كما كتب كتاباً فى فلسفة الإنشاء ، ضمنه كل الأنواع الأدبية المعروفة لعهده ، وأردف كلا منها بنماذج مختارة من إنتاجه الخاص ، وهى أكثر أجزاء الكتاب حيوية ، إذ يسجل فيها خواطره وانطباعاته التى تركتها فى نفسه رحلاته ومعاملاته مع الناس الذين احتك بهم . والكتاب بعد حافل بنماذج شعرية للرجل نفسه . وذلك هو كتاب « إنشاء العطار » .

وفضلاعن ذلك فتاريخ «الجبرتى» حافل بنماذج شعرية له ، وكذلك « كنز الجوهر » و « الخطط التوفيقية ، وغيرها من الكتب التى ترجمت له .

ويغلب على أسلوب العطار البساطة والسهولة والحرص على الفكرة ونقلها إلى القارئ ، فالأسلوب عنده مجرد وسيلة للتعبير ، وليس غاية فى ذاته ، ومع ذلك فهناك فى بعض كتابات الرجل السجع والمحسنات البديعية عموما ، ومن غريب الأمر أن ذلك يكثر حيث يقصد الرجل إلى الإنشاء الأدبى أو الكلام فى فلسفة الأدب ، ويقل فى مؤلفاته العلمية حيث يسهل أسلوبه ويسلس حتى ليوشك أن يكون معاصراً .

أما فى الشعر فإن نماذج العطار الحية قد دارت حول موضوعات شغلته . وهو يسجل وعيه بذلك ، وتمسكه به ، ونفوره من التزام التقليد القديم فى بكاء الدمن ، والانفلاق فى الموضوعات الشعرية القديمة وعناصرها . ومن أقوال « العطار » فى هذا المعنى ما جاء فى ثنايا تغنيه بجمال الطبيعة فى دمشق :

بوادى دمشق الشام جز بى أخا البسط
وعرج على باب السلام ولا تخطى
ولا تبك ما يبكى امرؤ القيس حوملا
ولا منزلا أودى بمنعرج السقط
فإن على باب السلام من البها
ملابس حسن قد حفظن من العطط
هنالك تلقى ما يروقك منظراً
ويسلى عن الأخدان والصحب والرهط
كساها الحيا أثواب خط فدثرت
بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

فهو يؤثر التحول عن بكاء الأطلال إلى التغنى بالطبيعة الحية من حوله إيثاراً واعياً مقصودا . ويلاحظ على هذه المقطوعة سهولة لغتها وتماسك أبياتها فى كلٍّ مترابط ، وهى صفة عامة تنسحب على معظم إنتاج العطار الشعرى ما لم يعمد الرجل إلى التزام الإطار التقليدى للقصيدة العربية ، كما كان متداولا عند معاصريه . ويكثر ذلك فى شعر المناسبات غالباً ، وفى رثاء الشيخ العطار

لأستاذه «الدسوقى» نجد نموذجاً لهذا الشعر الذى يقوم على المغالاة ، والاتكاء على التوليدات المنطقية ، مما يجعله أقرب إلى النظم . وفى نماذج هذا النوع تنتكس وحدة القصيدة فيصبح البيت وحدة قائمة بذاتها ، كقوله :

عزاء بنى الدنيا بفقد أئمة ... لكأس مرير الموت كلٌ تجرعا
يميناً لقد جل المصاب بشيخنا الـ ... ـدسوقى وعاد القلب بالهم مترعا

بقى من أوجه نشاط العطار الجانب السياسى ، والفكرة الشائعة بين من درسوا الرجل وأعماله ، أنه كان مسالماً بطبعه ، يلتزم أسلوب العلماء فى الآراء التى يبشر بها . أو أنه كان حصيفاً كيساً ـ كما يذهب المرحوم الأستاذ العقاد ـ فلم يقحم نفسه فى مجال السياسة . بل إن الذى يراجع آراء معاصرى العطار من الشيوخ ، يحس أنهم كانوا ينظرون إليه على أنه رجل محمد على وصنيعته . والواقع أن هذه النظرة إلى نشاط العطار السياسى لها مايبررها من ظاهر موقف الرجل ورأى معاصريه فيه ، ولكنها بعد نظرة من الخارج ، أو هى نظرة على السطح .

لقد رحل العطار من القاهرة إلى أسيوط فراراً من وجه الفرنسيين أول دخول رجال الحملة الفرنسية القاهرة ، وظل هناك حتى هدأت الأحوال واطمأنت النفوس ، فعاد مع العائدين ، وبدأت صلة العطار بالفرنسيين منذ ذلك التاريخ ، وتوثقت هذه الصلة حتى أصبح يفهم عنهم ويتحمس لحضارتهم وعلمهم ، ويبشر بضرورة الانتفاع بكل ذلك ، ثم يسافر العطار إلى سوريا وتركيا ولايعود إلا فى عهد محمد على ، والراجح أنه خرج مكرها بسبب العسف الفرنسى ، أو احتجاجاً على إساءة الفرنسيين معاملة المصريين ، ويقال إنه ذكر ذلك فى بعض رسائله الخاصة .

وفى عهد الحملة بشر نابليون فى منشوراته وأقواله بملامح ديمقراطية رائعة، وبلغ ذلك ذروته فى الديوان العام الذى هو أشبه ما يكون بمؤتمر عام يضم مندوبى القاهرة والأقاليم للبحث فى شكل الحكم والضرائب والقضاء وغير ذلك من الأمور الحيوية ، كما نجد هذه اللمحة الديمقراطية تتكرر فى الدواوين الخاصة ، إلا أن الفرنسيين لم يلبثوا أن خيبوا المصريين فى آمالهم التى علقوها بهذه الوعود البراقة ، ذلك أن الفرنسيين سلبوا هذه المنظمات فاعليتها ، وفرضوا الكثير من الضرائب والإتاوات والسلف الإجبارية ، بل أزهقوا من الأرواح مالم يُجْدِ معه تدخل أعضاء الدواوين ولا العلماء ، مما ضاعف من حنق المصريين على الفرنسيين ، وهو ماترك أثراً حاسماً على الحركة القومية الوليدة . وبدهى أن العلماء المثقفين الفاهمين كانوا فى طليعة الناقمين ، وكان العطار بين هؤلاء فى المقدمة . وحسبنا دليلا على غضبة الشعب وعدم انخداعه بو عود نابليون أن الديوان العام انتهى بثورة القاهرة الأولى .

وفى عهد الحملة الفرنسية أيضاً ، ترجم الدستور الفرنسى وأعيد طبعه ثلاث مرات ، وكان العطار يتابع الكتب المترجمة ، فلا شك أنه قرأ هذا الدستور المترجم ووعاه . ولقد كان العطار بعد معنياً بتقدم البلاد حريصاً عليه ، وهو صاحب فكرة إرسال الطهطاوى تلميذه الفذ فى البعثة العلمية إلى فرنسا فى عهد محمد على ، كما كان صاحب فكرة تدوين الطهطاوى لكل ما يرى وما يعن له فى أثناء رحلته مما كان ثمرته كتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » . فليس من المغالاة فى شىء أن نستنتج أن وقوف الطهطاوى عند نظام

الحكم الفرنسى ، ونقله من الدستور الفرنسى ، وإطالته الوقوف عند ما أسماه « جوانب العدل » فيه ، إنما يرتد إلى إيحاء أستاذه العطار . ومن هنا يمكن أن نجمل موقف الرجل السياسى فى عهد الحملة الفرنسية ، فى نشاط معاد استوجب نفيه ، ثم تنبهه إلى مزايا الديمقراطية الفرنسية ، وحرصه على أن تنتفع بلاده بها انتفاعاً رسم خطوطه العريضة لتلاميذه وعهد إليهم بموالاته .

* * *

وفى عهد محمد على نجد إشارات متفرقة يمكن بجمعها وتعمقها أن نستدل على موقف العطار السياسى . وأولى هذه الإشارات ، أن الرجل كان صديقاً حميما للجبرتى المؤرخ ، وأنه أسهم معه فى تأليف كتابه « مظهر التقديس » . والمعروف عن الجبرتى أنه كان ينقم على محمد على افتياته على الكيان المصرى والشخصية المصرية ، وإن أعجب بنشاطه وحزمه . يقول فى ذلك : « . . فلو وفقه الله بشىء من العدالة على ما فيه من العزم والكياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه » .

وليس ببعيد أن يكون هذا هو حقيقة موقف العطار نفسه من محمد على وحكمه ، لاسيما أن الرجل كان شديد الغيرة على المصلحة العامة ، شديد الحرص على تشخيص الواقع المحيط به وتغييره .

* * *

أما الإشارة الثانية إلى موقف العطار السياسى فى عهد محمد على ، فنجدها فى الوقائع فى الفترة التى ولى فيها العطار تحرير القسم العربى منها (١٨٢٨ ـ ١٨٣٠ م) . وخلاصة هذه الإشارة أن أحد محررى الوقائع واسمه

عزيز أفندى كان يحرص على أن يعرض الأخبار التى ترد إليه من محمد على عرضاً موجها ، أى أنه كان يعلق عليها برأيه الشخصى ، ولم يرض ذلك محمدا علياً ، فلفت نظر عزيز أفندى مرة ومرة ، وفى الثالثة نحاه نهائياً عن الوقائع ، وبعد ذلك بقليل نجد رئيس التحرير نفسه يعتذر عن كتابته بعض أشياء لم يكن مطلعا عليها فوقع بها الخطأ ، وأن سعادته (محمد على) أمر بأنه لا يكتب شىء إلا بعد الاطلاع على حقيقته ليكون خالياً من السهو والخطأ ، ويشكر المحرر محمداً علياً لتجاوزه عن هذا الأمر ، بل واختياره المحرر عضواً فى المجلس العالى من غير استحقاق .

وهذه الإشارات جميعاً ، لا تدع مجالا للشك فى أن العطار لم يكن راضياً تماماً عن كل ما يدور حوله ، ولكنه كان كيساً اتعظ بما فعل محمد على بزعماء المصريين وعلمائهم المناوئين له ، فلم يلجأ (العطار) إلى أسلوب المجابهة المفتوحة .

والخلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية .

وقد حاول أن يشخص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه ، كما نادى بضرورة تغييره ورسم برنامج هذا التغيير ، ثم أسهم بدوره فى هذا التغيير . وأخيراً أنه عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه ، الذين يعتبر رفاعة الطهطاوى نموذجهم الفذ الذى بلغت حركة العطار على يديه أوجها . وفى كل ما قاله الطهطاوى وما عمله تكاد روح العطار وشخصيته أن تلمس باليد . .

محمد أبو الفتح

١٢١٧ — ١٢٩٤ هـ

هو الشيخ محمد أبو الفتح ، مفتى الأسكندرية . وقد ولد فى أوائل القرن الثالث عشر ، وطلب العلم بالأزهر على الشيخ الصاوى وغيره من شيوخ الوقت ، ثم انتقل لرشيد وتزوج بها .

وكان ملازما للشيخ محمد البنا الكبير ، فلما انتقل الشيخ إلى الأسكندرية انتقل المترجم معه وبقى بها وانتخب أمينا لفتواها ، وكان مفتيها إذ ذاك الشيخ الدويرى . ثم لما مات « الدويرى » تولى « البنا » الإفتاء ، فنقل المترجم لمنصب آخر ، ولما مات البنا تولى هو إفتاء الثغر وبقى به إلى أن مات .

وكان له شغف زائد بجمع الكتب واقتناء نفائسها ، حتى اجتمعت له خزانة نفيسة بيعت بعد موته بثمن بخس ، وكان رأى بناته وزوجته إبقاءها فلم يرض ولده ، فذهبت وتفرقت بعد ما عانى أبوه ما عانى فى شرائها واستنساخها .

وكان له ولع أيضا بجمع الساعات ، فجمع منها نوادر وطرفاً بيعت بعد موته أيضا ، ولم يترك شيئاً من الحطام سوى دار بالأسكندرية كان يسكنها فى أواخر أيامه .

وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شهر صفر سنة ١٢٩٤ هـ ودفن يوم الثلاثاء ، ورثاه الشيخ عبد الرحمن الأبيارى قاضى الأسكندرية بقصيدة مطلعها :

أهذى سيوف الدهر جردها الدهر أم السنة الشهباء جف لها الزهر

ومن مؤلفاته : كتاب « تبويب الأشباه والنظائر لابن نجيم » .

وشرع فى كتاب آخر فى الفقه لم يكمله .

وكانت له يد طولى فى علم الميقات .

وهو جد صاحبنا(١) العالم الفاضل الشيخ حسن منصور لأمه .

---

(١) كان أحد اصحاب المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا — رحمهما الله وأحسن مثوبتهما .

محمد الأشموني

١٢١٨ — ١٣٢١ هـ

هو الشيخ محمد الأشموني ... ومعلوم أن أصله من أشمون جريس ، قرية من أعمال المنوفية ، وقد أخبر أنه من نسل أبي مدين التلمساني . ولد سنة ١٢١٨ هـ وحضر إلى الأزهر فتلقى عن شيوخه : القويسني ، والبولاقي ، والفضالي ، والأمير ، والباجوري ، والمرصفي وغيرهم . وكان أكثر حضوره على البولاقي والباجوري ، واشتهر بالذكاء وجودة التعليق ، وإتقان التحصيل ، إلى أن تأهل للتدريس ، فدرس الكتب المتداولة بالأزهر صغيرة وكبيرة . وقرأ المطول ، وجمع الجوامع ، وكتب التفسير ، والحديث ، والعقائد وغيرها مرات ، بعذوبة منطق ، وحسن إلقاء . ولم يؤلف كتباً ، وإنما كتب عنه بعض الطلبة تقييدات عن قراءته للعقائد النسفية ، وكذلك قيدوا عنه نحو ثلاثين كراسة حال قراءته لمختصر السعد ، وأخذ عنه كثيرون من كبار علماء الأزهر ، وعمر عمرا طويلا ، حتى ألحق الأجداد بالأحفاد ، وصار جميع من بالأزهر إما تلاميذه أو ممن في طبقتهم .

وروى أن الشيخ محمد الإنبابي شيخ الأزهر تاقى عنه ، إلا أن الشيخ الإنبابي كان ينكر ذلك . ولم يعقب المترجم لأنه لم يتزوج قط ، وكان القائم بخدمته في داره أخت له وجارية سوداء ، وعبد اسمه محبوب تبناه وزوجه

من الجارية ، وفتح له حانوتاً بالتربيعة وصيره من التجار . ثم وقف على الثلاثة داره التى كان يسكنها بالباطنية بالقرب من الأزهر .

ولم ينقطع عن التدريس والإفادة إلا قبل موته ببضع سنوات ، لضعف أصابه من الكبر وأبطل حركته . وكانت وفاته ليلة الجمعة رابع ذى القعدة سنة ١٣٢١ هـ ، عن مائة سنة وثلاث سنوات ، وأطلقوا منادين فى الطرق للإنباء بوفاته ، فساروا مثنى رافعين أصواتهم بالنعى ، واجتمع فى صبيحة الوفاة الألوف من صفوف الناس لتشييع جنازته ، قيل إنهم بلغوا نحو أربعين ألفاً ، وحضر أيضا الوزير المنبهى المراكشى وزير الحرب بالمغرب ، وكان مارا بمصر للحج .

وتقدم شيخ الأزهر السيد على البيلاوى للصلاة عليه بالأزهر ، وتلوا قبيل الصلاة مرثية من نظم الشيخ إبراهيم راضى مطلعها :

لا قلب للإسلام غير حزين فاليوم فيه انهد ركن الدين

ثم خرجوا بالجنازة إلى القرافة ، ودفنوه فى مقبرة الشيخ الإنبابى . وكان رحمه الله أنيس المحضر ، كثير الدعابة والمزاح مع الطلبة ، شديد الورع ، متصفاً بالزهد والتقشف ، وقلة الاحتفال برفاهة العيش ، إذا سار فى الطريق توكأ على عصاه بيد ووضع الأخرى على كتف من يسايره ، ولا سيما بعد علو السن وضعف القوة . حضر مرة احتفالا مما يقام لكسر السد أو المولد النبوى ، ورموا بالسهام النارية كعادتهم ، فتجاوز سهم منها مداه ووقع على الحاضرين ، فأصاب المترجم فى إحدى عينيه وذهب بها ، فرتبت له السلطات راتباً شهرياً علاوة على راتب الأزهر . رحمه الله تعالى .

ابراهيم مرزوق

١٢٢١ — ١٢٨٣ هـ

تلقى إبراهيم بك مرزوق الشاعر العلم بمدرسة الألسن ، وتخرج على ناظرها رفاعه بك رافع الشهير، فقرأ بهذه المدرسة النحو والصرف وباقى علومها وبرع فى الفرنسية . وكان لرفاعة عناية خاصة فى تلقين تلاميذه العربية والعلوم الأدبية ، وتدريبهم على نظم الشعر ، فكان للمترجم حظ من هذه الصناعة ، فنظم الشعر الجيد من المقطعات والقصائد ، اعتنى بجمعها بعده محمد سعيد بك ابن جعفر مظهر باشا سنة ١٢٨٧هـ فى ديوان سماه « الدر البهى المنسوق ، بديوان إبراهيم بك مرزوق » وطبع بمصر .

ولما أتم المترجم علومه بالمدرسة استخدم فى ديوان كان يقال له « ديوان الهرجلات » وهو خاص ببيع الخيل والماشية التابعة للحكومة . ثم نقل منه ناظراً للقلم الإفرنكى بالضبطية ، وفصل منه مدة عبده باشا ضابط مصر . ثم عاد إليه بعد نحو ثلاث سنوات ، وكان مدة توليه لهذا القلم كثير المعاكسة للإفرنج ، إذا وقع أحدهم فى سجن الضبطية أو كانت له دعوى بها ، قلما كان يسلم من أذاته . حتى ضج منه وكلاء الدول ، وأكثروا من الشكوى ، فلم يكن يثبت عليه شىء عند التحقيق ، والسبب فى ذلك أنه كان يعتمد على إخوانه

ومرؤوسيه بالضبطية على إيصال الأذى إليهم سراً نكاية بهم ، لطغيانهم على الرعية وتدرعهم بدروع الحمايات .

وفى مدة وكالة إسماعيل الخديو نقل المترجم معاوناً بمجلس الأحكام ، ثم لما تولى هذا الخديو على مصر أرسله ناظراً للقلم الإفرنكى بالخرطوم قاعدة بلاد السودان . فبقى إلى أن توفى بها سنة ١٢٨٣ هـ .

وكان مربوع القامة ، أبيض اللون ، قد وخطه الشيب . ومات بعد ما تجاوز الستين . رحمه الله .

محمد عياد الطنطاوي

١٢٢٧ هـ — ١٢٨٠ هـ

١٨١٠ م — ١٨٦٢ م

وقفت له على ترجمة بخط الأديب الأستاذ عبد المعطى السعد ، قال : هو الشيخ محمد بن سعد ، الملقب بعياد الطنطاوى ، الشافعى ، أحد أفراد الطبقة الأولى الآخذة عن شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم الباجورى شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ .

كان رحمه الله من أعيان علماء القرن الثالث عشر ، راسخ القدم فى العلوم العقلية والنقلية ، آخذاً بحظ وافر من الأدب. وله كثير من الشعر الحسن والنثر المستحسن ، وكان المشتغلون بالأدب من علماء الأزهر فى عهده قليلين يعدون على أصابع اليد ، كشيخ الإسلام الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ خليل الرجبي .

وقد ولد المترجم فى طنطا سنة ١٨١٠ م وتعلم فى الجامع الأحمدى بها ، ثم أتم تعليمه فى الأزهر . وله رحمه الله مؤلفات كثيرة تنم على غزارة مادة ودقة نظر ، منها : فى العقائد حاشية على الشرح المسمى « بالتحفة السنية فى العقائد السنية » للعلامة الكبير برهان الدين أبى المعالى إبراهيم السقا على منظومة السيد محمد بليحه ، يقول فى آخرها :

(وحيث طعمت من بليحة ، وشربت من منهل السقا ، فتفكه بها لأنس نفسك علك أن ترقى) .

ومنها حاشية على رسالة شيخه العلامة الشيخ إبراهيم الباجورى . يقول فيها مادحاً ومقرظاً ، كما وجدته مكتوباً بخطه تحت طرتها :

إن علم الكلام أفضل علم ... فيه وصف الإله والرسل يسرد
فإلى هذه الرسالة يمم ... فهى حازت لما عليك تأكد

ومنها « شرح منظومة الشيخ السلمونى » التزم السجع فى جميع جمله ، يقع فى نحو كراسة . و « حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهرى » على متنه المسمى « بالأزهرية » فى علم النحو ، ضمنها تحقيقات جمة . و « حاشية على متن الزنجانى فى الصرف المشهور بمتن العزى » قال فى أولها موريا بالمتن المذكور :

الصرف زين أهله ... وهو لهم كالكنز
قالوا لما تقرؤه ... قلت لأجل (العز)

ومنها « منظومة فى البيان نظم فيها متن السمرقندية » وشرح على المنظومة المذكورة ، فى كراستين لطيفتين .

ومنها حاشية جليلة على كتاب « الكافى فى علمى العروض والقوافى » .

وقدر له رحمه الله الذهاب إلى روسيا ، فذهب إليها ، حوالى سنة ١٨٤٠م وعمل مدرساً للغة العربية بمعهد اللغات الشرقية فى بطرسبورج[١] . وظل يعمل

(١) مدينة لينجراد الآن .

هنالك نحو ربع قرن ، إلى أن انتقل إلى رحمة الله سنة ١٨٦٢ م ، بعد أن تخرج على يديه عدد كبير من المستشرقين .

وكانت بينه وبين رفاعه الطهطاوى مراسلات أدبيـة ، وكلاهما من خاصة تلاميذ الشيخ حسن العطار . وقال فى إحدى رسائله إليه :

« أنا مشغول بكيفية معيشة الأوربيين ، وانبساطهم ، وحسن إدارتهم . خصوصاً ريفهم وبيوتهم المحدقة بالبساتين والأنهار ، إلى غير ذلك مما شاهدته قبل بباريز ، إذ بطرسبورج لا تنقص عنها ، بل تفضلها فى أشـياء كاتساع الطرق . أما من جهـة البرد فلم يضرنى جداً ، وإنما ألزمنى ربط منديل فى العنق ، ولبس فروة إذا خرجت ، أما فى البيت فالمداخن المثبتة معدة للإدفاء » .

ومن أهم مؤلفاته كتاب سماه « أحسن النخب ، فى معرفة لسان العرب » وقد ضمنه جملا وألفاظاً ومكاتبات وقصصاً وأغانى عامية ، مع ترجمتها إلى الفرنسية . وله مخطوطات عدة موجودة فى مكتبة كلية بطرسبورج .

وقد اصطحب معه إلى روسيا زوجته وابنه ، وبقيا بعده فيها إلى أن توفيا ودفنا مثله بمدافن المسلمين فى بطرسبورج .

ولم تؤثر إقامته الطويلة فى روسيا فى شىء من دينه أو عقيدته ، كما يؤخذ من قوله فى قطعة شعرية أرسلها إلى أحد أصدقائه بمصر :

أنا بين قوم لا أدين بدينهم أبداً ، ولا يتدينون بدينى

* * *

وقد وقفت على ترجمة أخرى للشيخ محمد الطنطاوى ، فى كتاب تلقيته من المستشرق الروسى أغناطيوس كراتشوفسكى عضو أكاديمية العلوم الروسية ، كتبه فى لينغراد فى ٣٠ تشرين الثانى (أكتوبر) سنة ١٩٢٤ م وهذا نص الكتاب :

« جناب العالم العلامة الفاضل والأستاذ المدقق الكامل[١] .

قد تسلمت فى هذه الأيام الجزء التاسع من مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ورأيت فيه مقالة عن الشيخ الطنطاوى ، جاد بها قلمكم السيال وعلمكم الواسع ، وسررت بها جد السرور لما نشرتم من ذكر هذا الرجل الفاضل الذى خدم الأدب العربى والروسى خدمة تذكر وتشكر . قد طال ما أعلل نفسى بكتابة ترجمة الشيخ ، وقد تراكمت لدىّ المواد ، ولكن لم تساعدنى الظروف حتى الآن بجمعها وترتيبها . أما المستقبل فآت . ولذلك رأيت أن أكتب إليكم ببعض الملاحظات والاستدراكات على مقالتكم اللطيفة ، وأقول :

من أهم المصادر فى هذا الموضوع تاريخ الحياة للشيخ ، المكتوب بقلمه ، وإن لم يكتب منه إلا قطعة صغيرة ، وهى منشورة بأصلها العربى والترجمة الألمانية للعلامة Y. G. Kasegarten فى مجلة اسمها :

Testochrisftder Dentocben Morginla' rdcsehen Yesselle choft I. V. 482. 282.

---

(١) يقصد المغفور له العلامة المحقق أحمد تيمور باشا رحمه الله .

« والمصدر الثانى لتاريخه لايقل أهمية عن الأول ، وهو مخطوطاته العديدة الموجودة الآن فى مكتب الكلية البتروغرادية . وهى لاتقل عن مائة وخمسين نسخة يوجد بينها كثير من تأليفات الشيخ كتبت أغلبها بخط يده . ومن مؤلفاته المذكورة فى مقالتكم (ص ٩ ـ ٣٨٨) يوجد فى الكلية « حاشية على الأزهرية » كتبت سنة ١٢٥٣ هـ ، وهى بخط يده (عدد ٨٢٧) . و « نظم التعريف للزنجانى » كتب سنة ١٢٥٥ هـ حسب النسخة الأصلية المؤرخة سنة ١٢٩٥ هـ (عدد ٧٢٦) . وعدد التأليفات غير المذكورة فى مقالتكم ليس بقليل ، ككتاب « منتهى الآراب ، فى الجبر والميراث والحساب » كتب سنة ١٢٩٥ بيده (عدد ٨٢٠) . وكتاب « الحكايات المصرية العامية » بيده (عدد ٧٤٥) . ومسودات لتاريخ العرب ، وترجمة الباب الأول من « كلستان السعدى » بيده (عدد ٨٣٨) وغيرها . وكثير من المخطوطات مع الحواشى والشروح للشيخ ، يذكر فيها وقت قراءته لها أو نسخه . وفى هذا من الفوائد كثير .

والمصدر الثالث لتاريخ حياة الشيخ مشتت ومبعثر بين أيدى الناس والمكاتب ، أعنى مكاتبته مع أصدقائه وتلاميذه . ولم يصل إلى يدى منه غير شىء قليل لا يطفىء غليلا .

وكان من تلاميذه المشهورين : Y.A Mallin الفنلاندى أصلا الذى سلح فى جزيرة العرب وفى بلاد مصر وسورية سنين عديدة ، تحت اسم عبد المولى .

وقد طبعت بعض مكاتيب الشيخ إليه مترجمة إلى اللغة الأسوجية ، ويوجد غيرها فى مكتبة الكلية فى عاصمة فنلندا المسماة : « Ilalsingfors » وقد أحرزت على النسختين منها .

« وما ذكره الأستاذ Ilnart من تاريخ موته (ص ٣٩٠) من مقالتكم ، فلا صحة له ، وهو مأخوذ على علاته من كتاب تاريخ الآداب العربية للأستاذ « Brockelmann » الشهير ، وأقرب منه إلى الصواب ما رواه أمين فكرى — مسنداً إلى الأستاذ غوتوالد — فإن الشيخ الطنطاوى توفى إلى رحمة ربه سنة ١٨٦١ م فى ٢٩ اكتوبر منها . كذلك لا صحة لما ذكرته مجلة رعمسيس (ص ٣٩١) وهو مأخوذ حرفياً من كتاب الأب لويس شيخو عن تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر (٣ : ٥٩) لأن الشيخ دعى للتدريس فى الكلية سنة ١٨٤٠ م وليس سنة ١٨٥٨ م . وكان هو المعلم الأول . وكان نفروتسكى معاوناً له وليس العكس . أما سفره إلى روسية فكان بدعوة من نظارة الخارجية لتدريس العربية فى مدرسة الألسن الشرقية التابعة للنظارة المذكورة . أما وقت سفره فليس ببعيد مما استنبطتموه فى مقالتكم (ص٣٩١) لأنه دعى إلى الروسية سنة ١٨٤٠ م ، وقدم إليها على ما يظهر فى هذه السنة . ومما يؤيد ذلك نسخة « شرح سقط الزند » الموجودة بين مخطوطاته (عدد ٨٣٧) . فإنه يذكر فى ختامها أنه نسخها سنة ١٢٥٦ وهو فى المحجر الصحى بالقسطنطينية .

وكذلك أصبتم فى تعيين وظيفـــة الخواجة بكتى (ص ٣٩٠) فإنه كان ترجماناً : (Agent consulaire) للقنصلية الروسية بالقاهرة .

هذا ما سنح لى تحريره فى هذه الفرصـة ، والمرجو من جنابكم أن تغضوا الأنظار عن هفواتى ، وتقبلوا عذرى على تقصيرى ، فإن العذر عند كرام الناس مقبول) .

علي الليثي

١٢٣٦ هـ - ١٣١٣ هـ

كان الشيخ علي الليثي - في ابتداء أمره - مقيما بمسجد الإمام الليثي، وكان ينزل إلى الأزهر لطلب العلم ويعود للمبيت هناك. وكان كريما على فقره. ثم ورد على مصر الشيخ السنوسيّ الكبير قاصداً الحجّ، فاتصل به وأخذ عنه الطريق وحجّ معه، ولما عاد إلى مصر لم يفارقه حتى سافر معه إلى «جغبوب» وأقام هناك مدّة لم يفتأ فيها يطلب العلم ويستفيد. ثم فارقه وعاد إلى مصر، واتصل بأمّ عباس الأول فجعلته شيخا على مجلس «دلائل الخيرات» عندها. ثم اتصل بالأمير السابق أحمد رفعت ابن إبراهيم باشا الكبير فاعتقد فيه وأطلعه على خزانة كتب عنده فاطلع على ما فيها واستفاد منها. وكان الاعتقاد فيه بسبب سفره إلى جهة المغرب وأخذه علم الزايرجة والأوفاق عن علمائه المشهورين، وتابعه في ذلك كثيرون، لاعتقادهم فيه معرفته هذا العلم.

ولما تولى سعيد حكم مصر أمر عبده باشا ضابط القاهرة بجمع من يأكلون أموال الناس بالباطل بهذه الخزعبلات وما إليها ونفيهم إلى السودان. فسيق معهم الشيخ علي الليثي لما علق به من الاتهام بذلك، فبقي في السودان إلى أن عفى عنه، وعاد إلى مصر.

ولما تولى الخديو إسماعيل تلألأ نجم الشيخ علي الليثي وبدا سعده

فاتصل به وقربه هو والشيخ عليا أبا النصر وجعلهما نديمين له كنديمى جذيمة وصار لا يصبر عنهما فى مجالس أنسه ، فكانا إذا حضر تلك المجالس أزاحا الكلفة وتبسطا معه فى القول والتنديم ، فكانت لهما فى ذلك من النوادر ما يملأ الأسفار .

وقد بلغ من شغفه بهما أن خصص لهما قاعة بديوانه يجلسان بها كأنهما من المستخدمين فيه ، وحدث أن أمر بكتابة ألواح على باب كل قاعة من الديوان ليعرف من بها كقلم التشريفات وقلم التحريرات ونحوهما ، وسألهما العامل ، ماذا يكتبه على قاعتهما ، فقال له الشيخ الليثى : اكتب عليها (إنما نطعمكم لوجه الله) .

وبسبب تقرب المترجم من الخديو قصده الناس فى الشفاعات عند الكبراء ، ونفع الله به خلقا كثيرين ـ جزاه الله عن مسعاه خير الجزاء .

ولما عزل الخديو إسماعيل ـ وتولى بعده ولده محمد توفيق ، شغف أيضا بالمترجم كوالده وقربه ، وأحله محله من القبول . حتى قامت الثورة العرابية وسافر الخديو إلى الإسكندرية ، فانضم الشيخ على الليثى للعرابيين اضطرارا أو اختياراً . فلما انتهت الثورة العرابية وعاد الخديو للقاهرة لم يؤاخذه وصفح عنه . وقابله المترجم بقصيدة مطلعها :

كل حال لضده يتحول فالزم الصبر إذ عليه المعول

تبرأ فيها من الفتنة ، وأبان عذره فى الانضمام إلى العرابيين ، وزاد بعد ذلك الخديو فى تقريبه وإكرامه . ولا سيما بعد أن بنى قصره بحلوان . وصار يسافر إليه كل أسبوعين فى سفينة بخارية ، فإنه كثيراً ما كان يسافر بالسفينة نفسها لزيارة الشيخ الليثى فى ضيعته بشرق أطفيح حيث يتناول الطعام عنده ويقيم يوما فى ضيافته ، وهو شىء لا يفعله مع غيره .

ولهذا اعتنى المترجم بتلك الضيعة فغرس فيها البساتين والكروم ، وبنى قصراً صغيراً لنزول الخديو وحرمه وحاشيته . ولم يزل هذا شأنه معه حتى مات الخديو ، وتولى بعده ولده عباس فلم يكن للشيخ حظ معه كحظه مع أبيه وجده ، ولذلك جعل أكثر إقامته بتلك الضيعة يشتغل باستغلالها ومطالعة كتبه ، فإذا حضر الى القاهرة نزل بداره التى بجهة باب اللوق فيقيم بها أياماً ثم يعود ، ولم يزل كذلك حتى اعتلت صحته وطال مرضه أشهراً حتى توفاه الله الى رحمته يوم السبت ١٠ من شعبان سنة ١٣١٣ هـ عن سن عالية ، وقد شبع من الأيام وشبعت منه ، ونال من العز والجاه إلى مماته ما لم ينله غيره .

وكان رحمه الله آية فى حسن المجالسة ، محبباً إلى القلوب ، أديباً شاعراً ، حاضر الجواب ، فكه الحديث ، إذا عرفه إنسان تعلق به ، وكره مفارقته — مع أنه كان دميم الصورة أطلس ، ليس فى وجهه إلا شارب خفيف وشعرات على ذقنه .

ولما حضر لمصر السلطان برغش سلطان زنجبار ندبه الخديو إسماعيل لمرافقته ومجالسته ، فلازمه مدة مقامه بالقاهرة ، وأعجب السلطان به إعجاباً شديداً . ثم لما عاد لبلاده صار يتعهده بالرسائل والهدايا من العنبر ونحوه كل سنة فيهدى هو أخصاءه وأصحابه، وكذلك ما كان ينتج ببساتينه من غرائب الفاكهة وأصناف الأعناب النادرة كان موقوفاً جميعه على الهدايا لا يبيع منه شيئاً .

وكان أدباء مصر وفضلاؤها — يقصدونه فى تلك الضيعة ، فينزلهم على الرحب والسعة ، ويقيمون عنده الأيام والأشهر ، وهو مقبل عليهم بكرم خلقه ولطائفه ومحاضراته المستحسنة ، وقد يقيم الإنسان عنده شهراً أو أكثر وهو يؤنسه كل يوم بحديث جديد لا يعيده .

واقتنى خزانة كتب نفيسة اجتمعت له بالإهداء الشراء والاستنساخ ، وكان يبذل الأثمان العالية فى الكتب النادرة ، فجلبت له من الآفاق وعرفه تجار الكتب والوراقون فخصوه بكل نفيس منها . ثم لما مات اقتسمها ورثته .

ومما وقفنا عليه للشيخ الليثى من الشعر قصيدة رثاء فى محمد سلطان باشا ـ من أعيان الصعيد الذين تقلدوا مناصب فى الدولة آخرها رياسة مجلس شورى القوانين فى عهد الخديو محمد توفيق ـ وكان قد سافر إلى أوربة لمعالجته من علة لم تفد فيها معالجة أطباء مصر ووافاه أجله فى مدينة غراتس

بالنمسة، ونقلت جثته إلى القطر المصرى فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ١٣٠١هـ.

وكان مطلع قصيدته :

لا تأمن الدهر واحذره أخا الفطن ... فعنصر الدهر مطبوع على الفتن
ياسابحا فى عباب اللهو من عَمَهٍ ... دع الأمانى واحذر عادى الزمن
دهر تنكر فى حاليه لائقة ... به لداريه فى سرّ وفى علن
بينا نرى المرء فى أزر الصفا جزلاً ... إذ ألبسته المنايا حلة الكفن
يمسى وأزهار روض العيش يانعة ... حيناً ويصبح منعياً على ظعن
ذى شيمة الدهر لم يسلم مساله ... هيهات يرعى ذماماً غير مؤتمن
نرجو وفاه ولو كان الوفىّ لما ... أودى بنفس أبى سلطان ذى المنن

ومنها والله أعلم بما يقول :

يالهف نفسى على واف له همم ... ببعضها لو تحلى الدهر لم يخن

ومنها :

إنى لأعجب من ساع لغائلة ... وكان يرجو شفاء الروح والبدنِ
لكن قضى الله فى إتمام نعمته ... بأن يموت شهيداً نازح الوطن
من مثله قام بالأمر العظيم وقد ... كان الزمان عبوس الوجه بالفطن

ومنها فى إقامة الخديو مأتمه :

وبعد أن مات إتماماً لنائلة ... أحيا مآتمه جرياً على السنن
هذى العناية قد ودّ الحسود له ... لو كان أودى ولاقى مثلها وفنى

قل للحسود انتهض واحلل مكانته خلا لك الجو فاقرع هامة القنن
يا شامتا بنعيّ المكرمات فعش وخذ أمانا بما تهوى من الزمن
هذا وإلا فنح مثلى مساعدة وانثر فرائد دمع غالى الثمن
ما كل من مات تبكيه الكرام ولا كل البكاء بكاء الواله الحزن
هذى مساجده هذى مدارسه هذى منازل أضياف على سنن
لا أكذب الله إنى بت من أسف لولا يقينى بوشك القرب لم أكن
وقد كفانى رثا شجو يؤرخه سلطان باشا شهيدا مات ياحزنى

١٥٠ — ٣٠٤ — ٣٢٠ — ٤٤١ — ٨٦

١٣٠١

حيث كانت وفاة سلطان باشا سنة ١٣٠١ هـ ومما يؤثر عن الشيخ الليثى أنه كان له إلمام تام بالرثاء التاريخى — على جارى عادة عصره . وفضلا عن أنه كان شاعراً أديبا فلم نقف له على ما دوّنه من الشعر . وأغلب الظن أنه لم يطبع منه ما كان مخطوطاً ضمن مكتبته التى كانت تزخر بنفائس المخطوطات مما جلب إليه إهداء وشراء ونسخا واستنساخاً ، وما بذله فى اقتنائها من المال الكثير حتى اقتسمها من بقى بعده من ورثته ، ولعلها بقيت محبوسة تحت أيديهم لم ينتفع بها أحد .

وبالجملة : فقل أن يوجد مثله ، أو يجتمع لإنسان ما اجتمع له من الورع والتقوى ، خصوصاً فى أواخر أيامه ، رحمه الله رحمة واسعة .

محمد الطنطاوى

١٢٤١ هـ — ١٣٠٦هـ

وقفت له على ترجمة جمعها الأستاذ العالم السيد عيسى إسكندر المعلوف، قال :

هو الشيخ محمد ابن الشيخ مصطفى ابن الشيخ يوسف ابن الشيخ على الطنطاوى الأزهرى ، ولد فى طنطا سنة ١٢٤١ هـ ، ومات أبوه وعمره أربع سنوات ، وماتت أمه وعمره ست سنين ، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين على الشيخ محمد الشبراويشى ، ثم دخل جامع السيد البدوى للطلب ، فقرأ على السيد محمد أبى النجا المشهور صاحب الحاشية ، والشيخ عبدالوهاب بركات ، والشيخ على حمزة . وانتفع بهم مدة ، وأجازوه بالإجازة العامة .

ثم سافر مع أخيه الأكبر الى بلاد الروم وبلاد الترك ثم دخل حلب وقرأ على الشيخ أحمد الترمانينى وأجازوه ، ثم رحل الى الشام سنة ١٢٥٥ هـ وقرأ على الشيخ سعيد الحلبى والشيخ عبدالرحمن الطيبى والشيخ عبدالرحمن الكزبرى، وأخذ طريقته النقشبندية على الشيخ محمد الخانى الخالدى ، فانتفع به حتى استخلفه عنه فيها (١) .

---

(١) ملخصة من كتاب «حلية البشر فى تاريخ القرن الثالث عشر» للمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار علامة دمشق — الجزء الثالث صفحة ٢٨٩ بخط المؤلف .

وعاد إلى مصر سنة ١٢٦٠ هـ ، ودخل الجامع الأزهر وانقطع للطلب بهمة وجد واجتهاد ، فقرأ على الشيخ إبراهيم الباجورى ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ عليش المغربى ، والشيخ مصطفى البلتانى (١) . والشيخ مصطفى المبلط ، والشيخ محمد الخضرى ، وأكثر قراءته عليه فى العلوم الغريبة كالميقات والفلك والجبر والمقابلة ، إلى أن صار إماماً فى العلوم العقلية والنقلية ، مع شدة ذكائه وحفظه .

ثم رجع إلى الشام واستوطن دمشق فى محلة الميدان سنة ١٢٦٥ هـ ، وجلس فى حجرة جامع سيدنا صهيب الرومى ، فأقبل عليه الطلبة ، ولم يزل يقرىء الطالبين إلى سنة ١٢٧٨ هـ ، ثم دعاه الأمير عبد القادر الجزائرى وعين له معاشاً (راتباً) واستأجر له داراً ، وأرسل جميع أولاده للأخذ عنه ، مع غيرهم من طلاب العلوم والفنون .

وكان الشيخ الطنطاوى يشتغل إلى ذلك بحساب جداول مما يتعلق بعلم الفلك والميقات والربع المقنطر والمجيب والأسطرلاب ، وقد قرأت (٢) عليه جملة رسائل فيها ، كما قرأت عليه دروسه فى جامع صهيب . كما كنت فى معيّته سنة ١٢٩٠ هـ حينما وقع خلل فى بسيطة منارة جامع بنى أمية ، المسماة « بمئذنة

---

(١) هكذا فى النسخة التى بخط المؤلف ولعله نسبة إلى (البلقاء) أو هى تحريف « القانى » .

(٢) القارىء هو الشيخ عبد الرزاق البيطار مؤلف الكتاب الملخصة منه هذه الترجمة .

العروس » ـ فحسب الشيخ سائر أعمالها ، وجعل لها جداول بعدة الأعمال ورسم غيرها ، ثم أزالها ووضع بسيطته فى مكانها

« وبالجملة » كان فى كل علم عمدة ، ولكل مشكل عدة . رقيق القلب رحيمة ، سخى الكف كريمه . غير أن دهره قد عانده ، وعاكسه فى آخر أمره وما ساعده . وهذا من دأبه مع أهل الفضائل ، وذوى المآثر والشمائل . إلا أنه كان يقابل ذلك بالتسليم والرضا ، ويعلم أن ذلك مما جرى به القدر والقضا(١) .

ومن نظمه قصيدة فى مديح راشد باشا والى ولاية سورية لأمر اقتضى ذلك قال فيها :

أضحت دمشق بهجة ومسرة ... تزهو على كل البلاد بنضرة

إلى أن قال :

لاتعجبوا والى حماها راشدٌ ... بل مرشد والرشد أعلى خلةِ
ومحمدىّ الخلق وهو محمدٌ ... ولذاته كلّ القلوب أحبتِ
أحيا بها العدلَ الذى ياطالما ... تاقت له كلّ النفوس وحنتِ
والأمن قد عمّ الأنامَ جميعهم ... فتقلدوا منه بأوفى منةِ (٢)

---

(١) هذه الفقرة مثال من سجع المؤلف فى تاريخه ، فانه التزمه فى أكثر الكتاب على عادة الفدماء وبعض المتأخرين مثل « ابن معصوم » فى (السلافة) « والمحبى » فى « النفحة » « والثعالبى » فى (اليتيمة) ... الخ .

(٢) لم يورد له من الشعر غير هذه القصيدة ، وهى على أسلوب شعر العلماء والفقهاء كما ترى .

وله قصائد كثيرة ، وتقييدات شهيرة . لا يحسن استقصاؤها للخروج عن المطلوب من الاختصار . وكذلك لو أردت أن أذكر عفته ، وتفصيل تعيين الحكومة له مقادير من المعاش لم يقبلها ورعاً وزهداً ، لأدّى المقام بخروج عن المرام .

وفى سنة ١٣٠٥ هـ ، رسم بسيطة[١] فى ميدان دمشق فى جامع الدّقاق المعروف بكريم الدّين — وجعل حسابها على الأفق المرئىّ ، فجاءت أحسن من بسيطة جامع بنى أمية التى كان حسابها على الأفق الحقيقىّ ، وتمّ عملها ورسمها وحفرها ، وصنع مكان فى المنارة لوضعها فيه فى أول « برج الجدى » . فعاجله المرض قبل ذلك ، وتوفى غرة جمادى الأولى سنة ١٣٠٦ هـ ، ودفن فى تربة باب الصغير قرب مدفن سيدنا بلال رضى الله عنه من جهة الغرب .

وبعد موته بقليل وضعت البسيطة فى مكانها ، والأوقات تستفاد منها بغاية الضبط . جزاه الله خيراً ، وأعظم لهُ منةً وأجراً .

---

(١) آلة يعرف بها الوقت كالساعة والمزولة .

محمد العباسي المهدي

١٢٤٣ هـ — ١٣١٥ هـ

هو ابن الشيخ محمد أمين الحنفي ابن الشيخ محمد المهدى الكبير — الشافعي. كان جده المذكور من الأقباط فأسلم على يد الشيخ العلامة محمد الحفني، وقرأ عليه وعلى أخيه الشيخ يوسف الحفني وغيرهما حتى صار من كبار العلماء وترشح لرياسة الأزهر بعد الشيخ الشرقاوى ، وللكنها لم تتمّ له وتولاها الشنوانى . وقد أطال « الجبرتى » فى ترجمته . . . ثم نشأ ولده الشيخ محمد أمين عالماً حنفياً ، وتولى الفتوى بمصر زمنا ، وتوفى سنة ١٢٤٧ هـ .

وولد الشيخ محمد العباسىّ المهدى بالأسكندرية سنة ١٢٤٣ هـ ، فقرأ بها بعض القرآن ، ثم حضر إلى القاهرة سنة ١٢٥٥ هـ ، فأتم حفظه ، واشتغل بالعلم سنة ١٢٥٦ هـ فقرأ على الشيخ إبراهيم السقاء — الشافعى ، والشيخ خليل الرشيدى — الحنفى ، والشيخ البلتانى ، وغيرهم ثم صدر أمر إبراهيم باشا ابن محمد على بتوليته إفتاء الديار المصرية فى منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٢٦٤ ، هـ وهو فى نحو الحادية والعشرين من سنيه ، ولم يتأهل بعد لمثل هذا المنصب الكبير .

ويقال إن السبب فى ذلك عارف بك الذى تولى القضاء بمصر ، وكانت له صلة بالشيخ محمد أمين المهدى ، فلما ذهب إبراهيم باشا إلى القسطنطينية

ليتسلم من السلطان مرسوم ولايته على مصر قابله عارف بك — وكان إذ ذاك شيخا للإسلام ـ وأوصاه خيراً بذرية الشيخ المهدى وأن يولى منهم من يصلح لمنصب أبيه .

فلما عاد إبراهيم لمصر ، بعث فى طلب الشيخ محمد العباسى المهدى ، فصادفوه فى درس الشيخ السقاء بحضر مقدمة مختصر السعد ، ولما قابله أثنى عليه لاشتغاله بالعلم ثم أنبأه بأنه ولاه منصب الفتوى بمصر ، وعزل عنه الشيخ أحمد التميمى الخليلى ، وخلع عليه خلعة هذا المنصب ، ثم عقد له مجلساً بالقلعة حضره حسن باشا المنسترلى ، والشيخ مصطفى العروسى وغيرهما ، فأقروا على إقامة أمين للفتوى يقوم بشئونها حتى يتأهل صاحبها لها ويباشرها بنفسه ، واختاروا له الشيخ خليلا الرشيدى بدل الشيخ على البقلى أمين فتوى التميمى . ونزل المترجم من القلعة بموكب كبير من العلماء والأمراء ، ووفد الناس على داره للتهنئة ، ومدحه الشعراء ، فمن ذلك قول الشيخ محمد شهاب :

عز ياعزة الحمى أن تقاسى بمهاة الصريم فيما تقاسى

ومنها قوله :

تبّ مفتى الهوى وتبت يده ضل شرعىٌ نهجه والسياسِ
فدعيه ياعز عز اصطبارى إن فتواه فتنة للناسِ
ولئن قلت أىّ فتوى البرايا حكمت بالنصوص دون التباسِ
وارتضاها الزمان قل لى وأرخ قلت : فتوى مَهدِيه العباسِ

وهى قصيدة طويلة ألحق بها هذه الأبيات الثلاثة مشيرا فيها إلى « التميمى » وإلى « الرشيدى » أمين الفتوى الجديد :

قلت لما أن تمّ بدر التميمى ... واعتراه نقص الخسوف الشديد
رجع الدرّ بالفتاوى إلى ما ... كان فيه من المكان المشيد
فلنعم الرشيد يا ابن أمين ... ولنعم الأمين يا ابن الرشيدى

وروى الفاضل محمد أفندى التميمى — فى الترجمة التى جمعها لأبيه الشيخ أحمد التميمى — أن سبب عزله عن الإفتاء أحقاد قديمة كانت فى صدر إبراهيم باشا منه ، بسبب معارضته له فى أمور تخالف الشرع كان يريدها ويعارضه الشيخ فيها ، فلا يجد بداً من الإذعان بسبب إقبال أبيه (محمد على) على الشيخ . فلما آلت ولاية مصر إلى إبراهيم كان أكبر همه عزله عن الإفتاء .

ثم أكب المترجم على الاشتغال بالعلم ، خصوصاً الفقه ، حتى نال منه حظاً وافراً ، وجلس للتدريس بالأزهر لإقراء « الدر المختار » فقرأ منه إلى كتاب الطلاق وأكمل قراءته فى داره . وقرأ « الأشباه والنظائر » فى داره أيضاً . وباشر أمور الفتوى بعفة وأمانة وتدقيق وتحقيق ، واشتهر بين الناس بالحزم والعزم وعدم مبالأة الحكام ، وحسبك وقوفه فى وجه عباس الأول وتعريضه نفسه للتهلكة صيانة لما استودع من أمانة العلم .

وسبب ذلك أن هذا الوالى أراد أن يمتلك جميع ما بيد ذرية جده

محمد على ، مدعياً أنه ورد مصر لا يمتلك شيئاً ، فكل ما خلفه لذريته إنما هو من مال الأمة يجب رده إليها ، ووضعه بيد أمينها المتولى شئونها ، واستفتى المترجم فلم يوافقه وأصر على الامتناع ، ولم يحفل بوعيده وتهديده ، حتى طلبه فجأة إلى بنها فسافر إليها وهو موقن بالهلاك ، وكان معه عند طلبه الشيخ أبو العلا الخلفاوى فسافر معه لمؤانسته ومواساته ، فلما وصلا إلى قصر بنها روجع المترجم فى الفتوى ، فأصر على قوله الأول ، فأمر بهما فأنزلا إلى سفينة بخارية سافرت بهما ليلا فى النيل لنفى المترجم إلى أبى قير ، واعتراه لشدة وجله زحير (١) كاد يودى به ، وهو مع ذلك مصر على قوله ، والشيخ أبو العلا يهون عليه الأمر ويؤانسه بالكلام ، إلى أن صدر الأمر بإرجاع السفينة وأنزلا منها وأمرا بالسفر إلى القاهرة . وسلم الله . فكانت هذه الحادثة سبباً لعلو قدر المترجم فى النفوس ، وإعظام الولاة فمن دونهم لشأنه ، وتسبب منها أيضاً إقباله على الشيخ أبى العلا المذكور وسعيه له فى المناصب التى تولاها وعظم بها أمره بعد ذلك .

وفى سنة ١٢٨٧ هـ أراد الخديو إسماعيل عزل الشيخ مصطفى العروسى شيخ الأزهر ، ولكنه خشى الفتنة — لأن العزل لم يقع من قبل لأحد من مشايخ الأزهر ، فأخذ فى جس نبض العلماء وسبر غورهم فى ذلك ، فهون عليه الشيخ حسن العدوى الأمر ، وأوضح له أنه وكيل الخليفة ،

---

(١) استطلاق البطن بشدة .

والوكيل له ما للأصيل . فسر الخديو ، وبادر إلى عزل الشيخ العروسى فى أواخر السنة المذكورة . وكان العدوى يطمع فيها ، وما قال ما قال إلا توطئة لنفسه ، فأخلف الله ظنه ، وصدر أمر الخديو فى منتصف شوال بتوليته الشيخ محمد العباسى المهدى ، والجمع له بين منصب الإفتاء ومنصب شيخ الأزهر . ودعاه الخديو لمقابلته وخلع عليه وأنزله من عنده بالموكب المعتاد . فباشر شئون منصبه بحزم وعزم وتؤدة وتعقل . وكان أول ما صدر منه سعيه لإعادة ما كان لأهل الأزهر من المرتبات الشهرية والسنوية ، ثم استصدر أمراً من الخديو بوضع قانون للتدريس فأجابه إلى ذلك ، ووضع قانون الامتحان ، وكانوا قبل ذلك لا يمتحنون ، بل كان من تأهل للتدريس تصدر له — فى أول درس له بحضره — شيوخه وغيرهم من كبار العلماء ، ويناقشونه ، فإن وجدوه أهلا أقروه وإلا أقاموه .

ولم يزل المترجم سائراً فى طريقه المحمود ملحوظاً بعين التبجيل من الحكام ، وبين الخاص والعام ، حتى ثارت الثورة العرابية المشهورة ، ورأى فيه العرابيون أنه ليس بالرجل الذى يوافقهم ويساعدهم فى مطالبهم ، فكان من جملة ما طلبه عرابى باشا من الخديو لما زحف الجيش على قصر عابدين ، عزل المترجم من الأزهر ، فعزل عنه فى المحرم سنة ١٢٩٩ هـ وتولى بدله الشيخ محمد الإنبابى ، وانفرد هو بالإفتاء . ثم اشتدت الثورة وجاهر العرابيون بطلب عزل الخديو ، وكتبوا قراراً بذلك وقع عليه العلماء والوجهاء ، وامتنع المترجم من التوقيع وقال لحامل القرار : « أنا لا أوقع بيدى ، فإذا كان فى الأمر

غصب فإن خاتمى معى ، خذوه ووقعوا أنتم بأيديكم كما تشاءون » فانحرف عنه العرابيون وبثوا عليه العيون ، حتى احتجب فى داره التى على الخليج بالقرب من مدرسة الفخرى المشهورة بجامع البنات . وتحامى الناس زيارته ، وصار لايخرج منها إلا لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد إليه .

ولما انتهت الثورة العرابية وعاد الخديو للقاهرة فى ١٢ ذى القعدة من تلك السنة ، ذهب الشيخ مع العلماء للسلام عليه وتهنئته ، فخصه الخديو من دونهم بمزيد من الترحيب والرعاية ، وكان بينهم الشيخ الإنبابى شيخ الأزهر ، فلحظ ذلك ، وخشى أن يعزله الخديو ليعيد العباسى ، فاستقال بعد أيام ، وأصدر الخديو أمره يوم الأحد ١٨ ذى القعدة بإعادة المترجم إلى الأزهر ، علاوة على منصب الإفتاء بيده ، وفيما يلى نص ذلك الأمر ، الموجه من الخديو إلى رئيس النظار :

«إنه بناء على استعفاء حضرة الأستاذ الشيخ محمد الإنبابى من وظيفة مشيخة الجامع الأزهر ، ووثوقنا بفضائل وعالية حضرة الأستاذ الشيخ محمد العباسى المهدى ، قد اقتضت إرادتنا توجيه هذه الوظيفة لعهدته كما كانت قبلا ، علاوة على وظيفة إفتاء السادة الحنفية المتحلى بها من السابق ، وصدر أمرنا للمومى إليه بذلك فى تاريخه . ولزم إصدار هذا لدولتكم إشعاراً بما ذكر » فى ٢ — أكتوبر سنة ١٨٨٢ م الموافق ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ .

وكان بعض علماء الأزهر سعوا لتنصيب الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ،

وكتبوا كتابة بذلك ، وأخذوا يوقعون عليها ويطوفون بها على العلماء ، ففاجأهم الأمر بإعادة المترجم ، وذهب سعيهم وتعبهم أدراج الرياح .

ثم استمر المترجم جامعاً للمنصبين قائماً بشئونهما أتم قيام ، حتى كانت سنة ١٣٠٤ هـ وفيها بلغ الخديو أن جماعة من الأعيان والتجار مثل محمد باشا السيوفى وأخيه أحمد باشا يجتمعون للسمر بدار المترجم فى أغلب الليالى ، فيتكلمون فى الأمور السياسية ، ويظهرون أسفهم من وجود الإنجليز بمصر وموافقة الحكومة لهم فيما يحاولون ، وغير ذلك من هذه الشئون . فحنق الخديو وأرسل من يحضرون إليه محمد باشا السيوفى فلم يجدوه بل وجدوا أخاه أحمد باشا ، ومضى هذا معهم إلى القصر ، فوبخه الخديو توبيخاً شديداً ، وقال له : « يخيل لى أنكم تريدون إعادة الثورة العرابية » فتبرأ من ذلك ، وحلف أن اجتماعهم لم يكن إلا بقصد السمر والائتناس .

ثم قابل الخديو المترجم فى إحدى المقابلات الاعتيادية فلم يهش له كعادته ، بل قال له وقت الانصراف : « ياحضرة الأستاذ ، الأجدر بالإنسان أن يشتغل بأمور نفسه ولا يتدخل فيما لايعنيه ويجمع الجمعيات بداره » . فما كان جواب المترجم إلا أن قال له : « إننى ضعفت عن حمل أثقال الأزهر ، وأرجو أن تعفونى منه » . ولم يكن الخديو يتوقع منه هذا الرد ، فغضب وقال مستفهما : « ومن الإفتاء أيضاً ؟ »

فقال له : « نعم ومن الإفتاء أيضاً » ... ثم انصرف .

ولم يكن المترجم ممن يغرب عنهم أن مثل هذا السبب لايدعو إلى الاستقالة ،

خصوصاً أن الخديو صرفه بالحسنى مع من اتهم معه ، ولكن كان هناك سبب أقوى أغضب رئيس النظار نوبار باشا الأرمنى ، وذلك لحادثة رفعت عنها دعوى أمام المحاكم الأهلية، واقتضى الأمر طلب كشف وجه إحدى المخدرات للتحقق منها ، فامتنعت عن الإسفار محتجة بعد جوازه فى الشريعة ، واستفتى المترجم فأفتى بعدم الجواز ، فشكاه رئيس النظار إلى الخديو ، ووصفه له بأنه أصبح عقبة أمام القضاة معارضاً لأحكام القضاء ، ثم طلب عزله فيما يقال — أو يقيله الخديو من الوزارة .

فلما قال الخديو للمترجم ما قال ، تيقن أن المراد عزله فاستقال ، وأمر الخديو يوم الثلاثاء ٣ ربيع الثانى من السنة المذكورة بإعادة الشيخ محمد الإنبابى للأزهر . وإقامة الشيخ محمد البناء للإفتاء . وبقى المترجم بداره التى على الخليج ، واشتغل بإصلاح قسم منها تشعث ، فأعاده إلى رونقه الأول ، وصبغ حيطانه بالأصباغ ، وهو القسم المطل على الخليج ، وصار يمضى وقته بالنظر فى شئونه الخاصة ، والاشتغال بالعلم ، إلى أن أعيد إلى الإفتاء .

وأصيب فى أواخر أيامه بفالج وهو يتوضأ لصلاة الجمعة أبطل حركته ، ثم تعافى قليلا وصار يخرج فى عجلته[1] للتنزه ، وعليه عباءة من الصوف . وأشير عليه بالإقامة بحلوان لجفافها فانتقل إليها ، وأقام بها برهة لم يستفد فيها شيئا ، فعاد لداره بالقاهرة . ووافته منيته فى الساعة الخامسة من ليلة الأربعاء ١٣ رجب سنة ١٣١٥ هـ عن اثنتين وسبعين سنة ، بعد أن لازمه المرض نحو

---

(١) عربة .

أربع سنوات ، فأذن له على المآذن، وحزن الناس لموته حزناً شديداً ،وتكاثرت الجموع على داره لتشييع جنازته ، فقيل إن عدد المشيعين بلغ نحو أربعين ألفا ، والمصلين عليه خمسة آلاف .

ودفن بقرافة المجاورين فى زاوية الأستاذ الحفنى جنب أبيه وجده ، ورثاه كثير من الشعراء جمعت مراثيهم فى رسالة ألفها الشيخ عثمان الموصلى نزيل القاهرة ، وسماها « المراثى الموصلية فى العلماء المصرية » لأنه أضاف إليها مارثى به الشيخ عبد الرحمن الرافعى مفتى الأسكندرية ، والشيخ سليم القلعاوى شيخ مسجد القلعة ، والشيخ محمد المغربى ، وكلهم توفوا فى هذه السنة أيضاً .

وكان المترجم رحمه الله رَبْعة ، أقرب إلى الطول ، مليح الوجه ، منور الشيبة ، معتدل القامة ، ذاهيبة ووقار . مات عن ثروة طائلة ، وولدين هما : الشيخ عبد الخالق المهدى ، والشيخ أمين ، ماتا بعده واحداً تلو آخر . ولم يؤلف رحمه الله سوى مجموع فتاواه الذى سماه (الفتاوى المهدية ،فى الوقائع المصرية) طبع بمصر سنة ١٣٠١ هـ فى ثمانية أجزاء كبار . وعاش فى عزة وتبجيل مدة حياته ، وتولى الإفتاء أربعين سنة من سنة ١٢٦٤ هـ إلى سنة ١٣٠٤ هـ لم يعزل فيها ، فسلم تحفظ عليه بادرة خطأ أو مخالفة للشرع ، وسبب ذلك أنه تولاه وهو صغير ، والعيون شاخصة إليه ، فكان لا يفتى فتوى إلا بعد المراجعة والتدقيق والتعب الكثير ، فحصلت له بذلك ملكة فيه ، حتى صار معدوم النظير لا يجاريه مجار فى هذا المضمار ، وأضيف إلى ما كان عليه من

التقوى والتشدد فى أمر الدين ، حتى كانت مواقفه أمام الولاة لاتزيده إلا رفعة فى عيونهم ، لعلمهم أنه لايريد إلا نصرة الحق ، فأحبوه وأغدقوا عليه بالإنعام .

ومن مواقفه غير ماذكرناه أن الخديو إسماعيل أراد مرة أن يستولى على الأوقاف الأهلية ، ويعوض عنها أهلها ما يقوم بمعاشهم ، فاستفتاه فى ذلك ، فتوقف ، وأفتاه بعضهم بالجواز ، فتكدر منه ، وجمع بينه وبين مخالفيه ، فناظرهم وفاز عليهم بعد ما ألفوا رسائل فى الحادثة ، وأكثروا من الجلبة .

ولم يقتصر الولاة على مشاورته فى الأمور الدينية المختصة بمنصبه ، بل كانوا يستشيرونه فى غيرها من معضلات الأمور ، لما عرفوه فيه من سعة المدارك وجودة الرأى ، حتى إن إسماعيل لما عزل عن مصر قال لولده توفيق فيما أوصاه به : احتفظ يابنى بالشيخ المهدى ، فإنه رجل لانظير له .

وبالجملة فمحاسن المترجم كثيرة ، ولم يكن فيه ما يشينه سوى ما كان يرميه به بعض شانئيه من الإمساك والتقتير ، ويضعون عليه النوادر الخارجة عن حد المعقول ، والمعروف عنه — للقاصى والدانى — أن داره كانت مفتوحة للصادر والوارد ، لاتخلو مائدته يوماً عنهم . وحسبنا أنه كان يخرج زكاة أمواله كل سنة ويفرقها على المستحقين ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأكثر فى الأمة من أمثاله . وكان حائزا لكسوة التشريف من الدرجة الأولى ، ومنح الوسام العثمانى الأول فى ٢١ صفر سنة ١٣١٠ هـ . هو وشيخ الأزهر الشيخ محمد الإنبابى وقاضى القضاة جمال الدين أفندى . وسبب ذلك أن السيد توفيق البكرى نقيب الأشراف سافر فى هذه السنة إلى دار السلطنة ، وتوصل

بمساعدة الشيخ أبى الهدى الصيادى إلى مقابلة السلطان عبد الحميد ، فأنعم عليه بهذا الوسام وبرتبة قضاء عسكر الأناضول . فلما بلغ ذلك مسامع الخديو أحبّ ألا يكون نقيب الأشراف ممتازاً عن كبار الشيوخ ، وأرسل إلى السلطان ملتمساً الإنعام على المفتى وشيخ الأزهر برتبة قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضى برتبة قضاء عسكر الرومالى ، لأنه كان حائزا لرتبة الأناضول ، لكن طلبه لم يصادف قبولا .

وأحيل إلى المترجم قديماً أمر انتقاء القضاة الشرعيين والمفتين الذين يقامون فى ولايات القطر ومراكزه ، فكان يختار ذوى الكفايات ، ويتحرى فيهم النجابة والذكاء والديانة ، ويحامى عنهم لدى الحكام ، ويشد أزرهم . فنال بذلك مقاماً لدى أهل العلم المرشحين لهذه المناصب ، ووجهوا وجوههم شطر داره ، وهو مع ذلك لا يميل مع الهوى فى تنصيبهم ، ولو كان ممن يمد اليد لجمع من هذا الوجه شيئاً كثيراً . ثم رأت الحكومة أن يكون أمر تنصيبهم منوطاً بلجنة تؤلف بنظارة الحقانية برياسة وكيلها إذ ذاك بطرس غالى باشا ، وعرضوا على المترجم أن يكون من أعضاء تلك اللجنة فأبى .

وكان له فى المحاماة عن أهل الأزهر ومساعدتهم القدح المعلى . وتروى عنه مواقف فى ذلك ، منها أن الشيخ مصطفى الفروسى مدة توليه على الأزهر استصدر من الخديو إسماعيل أمراً بنفى الشيخ حسن العدوى إلى إسنا ، وكاد ينفذ فيه ، لولا أنه استغاث بالمترجم ، فقام بنصره ، وذهب للخديو مستشفعاً ولجّ وألح حتى عفى عن الشيخ .

أحمد أبو الفرج الدمنهوري

١٢٤٣ — ١٣١٠ هـ

هو الشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهوري الشاعر الأديب ، ظريف الجملة والتفصيل، حلو النادرة والفكاهة ، انجذبت إليه النفوس وألفته القلوب على دمامته وغرابة شكله . ولد بدمنهور ونشأ بها فى ضنك ورقة حال ، ولم يكن مشتغلا بالأدب فى أول أمره ، ثم لازم الشيخ محمد الوكيل القبانى أحد أدباء دمنهور المشهورين وعليه تخرج فى النظم ، وصحب أيضا الشيخ حميده الدفراوى ، وهو أديب لكنه لا يبلغ درجة الوكيل ، ولم يحفر المترجم العلم على شيخ ، بل كان يلازم مجلس الوكيل ولا يفارقه ليلا ولا نهارا ، فيكتب عنه كل ما يسمعه من شعر ونثر ونادرة ثم يستظهره . أخبرنى ثقة : أنه اجتمع به بدمنهور حوالى سنة ١٢٦٥هـ فرآه شابا نيف على العشرين، مخفوض الجانب ، كثير التواضع ، لا يستنكف من خدمة الوكيل المذكور وحمل المصباح أمامه إذا سار ليلا . ثم نظر المترجم فى كتب الأدب ودواوين الفحول ، وبدأ ينظم الشعر ، فكان يعبث بالبيت والبيتين ، ثم نظم بعد ذلك القصائد والمقطعات ، إلا أنه كان قليل الإجادة ، كثير الخطأ واللحن ، ينكلف التجنيس والتورية ، وأحسن شعره ما نظمه فى المجون وضمنه ألفاظ العيَّارين والشطار . وكان حضوره إلى القاهرة صحبة الوكيل فأوصله إلى السيد عبد الخالق بن وفا شيخ السادات الوفائية ـ فأعجب بظرفه ومجونه ، وكان ينزل عنده كلما حضر إلى القاهرة ،

وهى إذ ذاك غاصة بالأدباء والأعيان ، وفى النـاس بقية ، فـكانوا يهشون به ويتهادونه إذا حضر ، ويراسلونه إذا غاب ، فحسنت حاله قليلا ، بما كان يناله من هباتهم . ثم اتصل بشاهين باشا كنج فى طنطا لمـا كان مفتشا على الأقاليم سنة ١٢٩٣ هـ فانتظم فى حلبة ندمائه واختص به وواساه وجعله طرفة مجلسه ، وجمع له من أغنياء البلاد مبلغاً وافرا اشترى به عقارا ، ورمم داره بدمنهور ، واجتمع عند شاهين باشا بعبد الله أفندى نديم الشهير وغيره من خاصة أهل الفضل والأدب ، ثم نقل شاهين باشا إلى منصب آخر بالقاهرة ـ فصار المترجم يتردد عليه ويقيم عنده الأيام والأشهر يجتمع فى أثنائها بغيره من الكبراء وذوى الوجاهة فيهدى إليهم مدائحه ويتحفهم بطرائفه .

وكان على قلة إجادته فى شعره مفتوناً به مبالغاً فى تقريظه وقت إنشاده ، يمزج ذلك بإشارات وحركات تستظرف منه . ولا يكاد يقر لأحد بالتقدم عليه فى النظم . ولعمرى لا أرى عبارة تفى بوصفه ووصف حركاته عند الإنشاد وقيامه وقعوده والتفاته واستدعائه الحاضرين إلى استماعه ، فإنه كان إذا أراد إنشاد قصيدة من نظمه بدأ أولا بتقريظها ، وندب الحاضرين إلى مواضع الإجادة منها ، فإذا ألقوا إليه بسمعهم أنشد المطلع وسكت هنيهة كالمأخوذ من جودته ، ثم التفت يمنة ويسرة مستطلعاً خبيئة رأيهم فيه ، واستحلفهم بالله وبأنبيائه هل طرق آذانهم مثله فى عمرهم ، وهل تهيأ لشاعر قبله ما تهيأ له من رشاقة المبنى وغرابة المعنى وتناسب الشطرين ، ثم يمضى فى البيتين والثلاثة ويعود إلى الصمت والتفكر ويقول : سبحان المانح ! كم ترك الأول للآخر ! وأمثال

هذه الجمل التى اشتهرت عنه وصارت من لوازمه ، ثم يمضى فى الإنشاد ، فإذا مر بتجنيس أو تورية وثب من موضعه وتمايل طرباً ، ثم نظر للحاضرين وقال لهم : اسمعوا من الفتى العربى اللعوب ، تفنّ على المتنبى وسحقا له . أين هذه السلاسة والسهولة ؟ وهكذا حتى يتم القصيدة ، فإن رأى من السامعين استحساناً تمادى فى غلوائه وأعجب وأطرب ، وربما عارضه بعض من يحضره استجلاباً لطرائفه واستئناساً بمحاورته ، فتصدر عنه النوادر ومحاسن الأجوبة الحاضرة .

بلغنى أنه حضر مرة مجلساً جمع لفيفاً من أهل الأدب ، فأنشدهم قصيدة من نظمه ، وبالغ فى استحسانها كعادته ، وأخذ يستطلع طلع آرائهم فيها ، فانتبذ له صديقنا العالم الفاضل والشاعر المجيد الشيخ عبد الرحمن قراعة مداعباً ، وقال له : أخطأت فى بيت منها ، فأدخلت حرفا على حرف ، وهو مالا يجوزه النحاة ! فإما أن تسقطه أو تأتينا بشاهد على صحة قولك .. ووافقه الحاضرون ومالوا معه على المترجم ، فنكس رأسه هنيهة ثم نظر إليهم كالمتعجب وقال : ياليت قومى يعلمون !

وكان كثير الاجتماع بشيخ أدباء العصر الشيخ أحمد أبى البقاء الزرقانى ، فلا يخليه مرة من شعر له ينشده إياه ، ويعرض للشيخ ما يشغله عن الاستماع فيستلفته ويكثر من الإلحاح عليه بترك ما هو فيه والإصاغة إليه ، ويضايقه بذلك مضايقة شديدة ، ولكن لا يكاد الشيخ يعرض عنه حتى تصدر منه بادرة ينقلب لها المجلس ضحكاً ، فكان يقول فيه : إن أبا الفرج عندى مشكلة من المشاكل ، لا أدرى أهو ثقيل أم ظريف ؟!

وكان أول اجتماعي به في مجلس أحد الأعيان وأنا شاب يافع متعلق بالأدب وأهله ، ولم أكن لقيته من قبل ، بل كنت أسمع به وأشتاق إلى رؤيته ، فرأيت عجباً . رأيت شيخاً قصيراً دميم الوجه قد ذهبت إحدى عينيه ، عليه جبة واسعة الأكمام ، وهو جالس في زاوية من المكان يملي على شخص حسن الخط دالية من الطويل منصوبة الروى ، جعلها تهنئة للخديو توفيق بقدومه من الإسكندرية ، فكان منه من الوقوف عند كل بيت والإعجاب به على ما تقدم ذكره ما ينهى للالتفات إليه . ثم مر ببيت قافية لفظه (ومعضدا) فوثب من مكانه ونبه الحاضرين إلى أنها : تورية باسم الخليفة «المعتضد بالله» فلم يوافقوه فأعرض عنهم وأقبل على الكاتب يشرح له حسن هذه التورية ، وأنها لم تتهيأ له إلا بعد إعمال الفكر والروية ، حتى أضجره ورمى الدرج من يده ، فغلبني الضحك واستظرفته وقصدت محادثته ، فقلت : لعل سيدي الأستاذ عارض بهذه القصيدة قصيدة أبي الطيب التي يقول في مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

فسكت ، ثم نظر إليّ شزراً ولم يزدني على قوله : تف على المتنبي . فاستغرقت في الضحك ، وسألت عنه بعض الحاضرين . فخبرني به ، فكدت أطير سروراً بلقائه ، وأقبلت عليه أمدح القصيدة وأذكر مواضع الإجادة فيها وأستعيدها منه ، فأبرقت أسرته وأقبل عليّ أيما إقبال وأسمعني بعض مقطعات من شعره ، فقلت له : أما كان الأولى بهذه اللآلي أن تنظم في سمط ؟ فقال : نعم ياسيدي

إلى مهتم بذلك ، وسيكون ديواناً مرقصاً . وامتد بنا المجلس ، فرأيت منه ما لو أردت إثباته برمته لطال بنا المقال ! ثم فارقته وأنا أشوق الناس إليه ، وكأنى به أحد أبناء المنجم الذين ذكرهم الثعالبي فى « اليتيمة » ، وأورد فصولا للصاحب بن عباد فى وصفهم .

ومن غريب أمر المترجم أنه كان يستملح منه مايستثقل من غيره ، فقد رووا عن « بشار » : أنه كان يصفر ويصفق ويتفل عند إنشاده ، وعن « البحترى » أنه كان يتقدم ويتأخر ويتلفت إعجاباً بشعره ، وقد عيبا بذلك وعدَّ من سقطاتهما التى نعاها عليهما الناعون ، بخلاف المترجم .

ومن غرائبه أنه كان معجباً بكنيته ، وكثيراً ما كان يتدرج بها إلى الانتساب لمن تكنى بها من الفضلاء المتقدمين ، كأبى الفرج ابن الجوزى ، وأبى الفرج الأصبهانى صاحب الأغانى وغيرهما ! ، فلا يدع أحداً من المتكنين بها إلا وينتسب إليه ، تارة لهذا وتارة لذاك ، ثم ارتقى درجة فادعى الشرف ولاث على رأسه عمامة خضراء ، ووسع أكمامه ، وسعى حتى جعلوه نقيباً للأشراف بدمنهور .

حدثنى صاحبنا الأديب الفاضل محمد شكرى أفندى المكى . قال : لقيته مرة وكنت علمت بأمر تلك النسب ، وأردت مداعبته فقلت : يا أبا الفرج إن كنيتك تنبىء عن شرف عظيم ، فلعلك من نسل أبى الفرج ابن الجوزى ، فقال : نعم ياسيدى صدقت وأصبت فراستك . ثم لقيته بعد ذلك بأيام

وقد نسى ما دار بيننا فأعدت عليه الحديث وقلت له : إجادتك فى الشعر مع هذه الكنية تدلنى على أنك من نسل أبى الفرج الببغاء ، فقال : أى نعم وهو الواقع . اهـ . ولا خلاف فى أنه كان يعلم قصد محدثه فى أمر نسبه ، إلا أنه كان يخرجه مخرج الجد ، حتى مع أخص الناس به ، ويغضب ممن ينكر عليه ، فيستظرف منه .

وادعى مرة أنه نال نصيباً وافراً من اللغة بحيث أصبحت لا يشذّ عنه شىء من مفرداتها ، وتمادى فى هذه الدعوى وتبجح بها فى المجالس ، وتصدر للإجابة عن كل سؤال فيها يطرح عليه ، فتوالت عليه الأسئلة وهو يجيب عنها خابطاً خبط عشواء لا يبالى بمن يحتج عليه بكتب اللغة . وصار الأدباء من أصحابه يرتجلون له ألفاظاً يسألونه عنها فيخترع لها معانى يجيب بها ، وربما أحال تخرصاً على كتب لغوية يعينها ، ونظم له بعضهم بيتاً — كبيت الخنفشار — وسأله عن معناه فى جمع كبير من الأدباء — وهو :

وبخرنق الأقيال عاثت فالتثت ورقاء تعترض الأكام بشيظم

فقال : نعم ! هذا بيت لعنترة ، ذكره له صاحب الأغانى وهو يصف به حمامة ، والخرنق : شىء يشبه نسج العنكبوت وليس به ، يكون بين أغصان الأشجار ، فيقول : إن هذه الحمامة عاشت بين الأقيال أى : الأشجار الكبيرة ، فالتثت قدماها بالخرنق أى اشتبكت به ، وأما الشيظم . . . وأراد أن يفسره ، فقطعته أصوات الضحك من جوانب المجلس .

وبالجملة فقد كان خفيف الروح ، محبباً إلى القلوب ، أديباً ظريفاً ، حاضر الجواب ، حلو النادرة . وكانت وفاته فجأة بدمنهور فى ثانى ليلة من شهر ربيع الثانى سنة ١٣١٠ هـ بعد أن صلى العشاء ، وكان آخر قوله : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فشق نعيه على من عرفه ، وشيع جنازته الألوف . تغمده الله برحمته .

زين المرصفي

١٢٤٤ — ١٣٠٠ هـ

هو الشيخ زين المرصفي الشافعي من طبقة الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشري ، إلا أن الشيخ سليما أكبر منهما سنا ، حضر إلى الأزهر ، وقرأ على كبار الشيوخ به حتى برع وتأهل للتدريس ، ثم جعله الخديو إسماعيل معلماً لولده حسين كامل ، وبسبب مخالطته له ولمن حوله ألم ببعض اللغات ، وسافر مع الأمير حسين إلى القسطنطينية ، وكانت أسواقها لم تزل آهلة بالكتب العربية ، فاقتنى هناك كتباً نفيسة غريبة عن أهل الأزهر . فصار ينقل منها فى تآليفه نقولا يغرب بها عليهم .

ثم استخدم بالمدارس وترقى إلى أن صار كبير المفتشين بها . ولم يزل بهذا المنصب حتى توفاه الله يوم الأربعاء الخامس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ ، فشيع جنازته لفيف من العلماء وجمع كبير من الناس ، وأمر ناظر المعارف(١) فسار فيها من كل مدرسة فريق من تلاميذها ، وأناب عنه نائباً حضرها .

ولما بلغوا به الجامع الأزهر للصلاة عليه ، وقف الشيخ حمزة فتح الله فأبنه ورثاه ببيتين من نظمه ، هما :

---

(١) وزير التربية والتعليم — الآن .

سقى الله من صوب الرضا أعظماً هوى
بها ركن بيت العلم إذ دكه الحَنِينُ
فلا غرو إن أضحت وجوه علومنا
مشوّهة ، فاليوم فارقها «زين»

رحمه الله رحمة واسعة .

وفى مقدمة شرح أحمد (بك) الحسينى لكتاب الأم للإمام الشافعى الذى سماه بمرشد الأنام ، لبر أم الإمام ، ما نصه : « زين المرصفى كان عالماً فاضلا أخذ عن علماء وقته ، وجدّ واجتهد حتى صار من أكابر العلماء . وكان ذهب مع الرسالة المصرية إلى بلاد فرنسا زمن الخديو إسماعيل ، وكان يجيد اللغة الفرنساوية ، وله كتابات فى المنطق والحكمة . وكانت وفاته سنة ١٣٠٠هـ ».

حسن عبد الباسط الحوى

١٢٤٥ — ١٣٠٠ هـ

كان حسن أفندى عبد الباسط الحُوَى خلاسى اللون يشبه الحبشى، وبوجهه أثر جُدرى. كان أديباً شاعراً هجّاء خبيث اللسان مجيداً، إلا أنه مقل. استخدم بالإسكندرية — فكان رئيس قلم فى الضبطية حوالى سنة ١٢٨٥ هـ، وبقى بها إلى سنة ١٢٩٠ هـ وكان بها إذ ذاك مصطفى صبحى (باشا) الشاعر المشهور، فكان يجتمع به من بها من الأدباء والشعراء فيسمرون معاً ويحيون الليالى بالمذاكرة وإنشاد الشعر، واتفقوا على تسمية مجلسهم بالمِربَد، وألّا يقبلوا به أحداً إلا إذا ارتضوا به جميعاً — فكان المترجم ممن رضوا به أن يكون من شعراء «المربد». (١)

وكانت تمر عليهم ليال يقترحون فيها ارتجال الشعر، ويعينون عدد الأبيات والوقت الذى يجب نظمها فيه، فكان أحدهم إذا تعذرت عليه قافية وأعجله الوقت ارتجل كلمة لا معنى لها أو فى معنى لا يوافق السياق وتمم بها البيت، فاجتمعت لهم من ذلك ألفاظ غريبة مضحكة سموها بالألفاظ المربدية!

ثم تنقلت الحال بالمترجم، فاستخدم معاونا بمديرية الشرقية. ثم فصل

---

(١) المربد: من أسماء أسواق العرب القديمة، مثل: عكاظ.

فضاق به العيش وفتح حانوتاً بالزقازيق للصيدلة القديمة المسماة الآن بالعطارة ، وكان أمره بها عجباً ، فإنه اقتنى كتباً مثل مفردات الطب وقانون ابن سينا ، وصار إذا طلب منه أحدهم بيع عقار من العقاقير سأله عن سبب حاجته إليه وقام إلى تلك الكتب فاستخرج له منها مزاياه ، وما يداوى به من العلل . وبقى مدة على ذلك حتى ، توفاه الله بعد سنة ١٣٠٠ هـ

ومن شعره يمدح محمداً فتح الباب أفندى كبير كتاب ديوان البحر :

رأيت العلا ترتاد[1] بعلا لنفسها
وقد خطبتها قبل ذاك الأوائل
فقمنا سراعاً قاصدين لخدرها
عساها بنا ترضى ويُجلى التواصل
فلما رأتنا واقفين ببابها
أشارت « لفتح الباب » منها الأنامل

وكان رحمه الله على خبث لسانه ، طرفة من الطرف ، وأعجوبة من العجائب ، فى حسن المنادمة وحضور الذهن وسرعة الجواب .

---

(١) تصطفى أو تختار .

رآه مرة بعضهم وهـو مسافر إلى الزقازيق فى القـطار ، ومعه جراب يحمله بيده ، فقـال له مـداعباً : أظن هـذا جراب الحـاوى — أى : المشعـبذ .

فقال : لا ياسيدى ، هذا جراب الحُوَىّ !

رضوان محمد المخللاتى

١٢٥٠ هـ — ١٣١١ هـ

هو الأستاذ الحجة الثقة فى عصره ، شيخنا العلامة الجليل الشيخ رضوان ابن محمد بن سليمان المكنى بأبى عيد المعروف بالمخللاتى ، الشافعى المذهب . ولد بالقاهرة فى حدود سنة ١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م . وبعد أن حفظ القرآن الكريم وجوّده تلقى علومه بالجامع الأزهر على علماء عصره ، ثم تخصص فى دراسة علوم القرآن « القراءات والرسم » فنبغ فيهما نبوغاً عظيماً ، وأنتج فيهما مؤلفات قيمة دلت على سعة علمه ووفرة اطلاعه ، حتى شهد له بالتفرد علماء عصره ، وعلى رأسهم شيخ القراء الشيخ محمد المتولى .

وقد أجازه فى سنة ١٢٧٧ هـ — ١٨٦٠ م ، صديقه ومعاصره الشيخ محمد عبده السرسىّ ، وكان من أجلة علماء الأزهر ، وعنهما تلقى علم القراءات خلق كثير ، ويقول فى إجازته له :

« ولما جاد الزمان بحبيبنا أعزّ الإخوان فى الله تعالى ، الشيخ رضوان ابن محمد بن سليمان ، الشهير بأبى عيد .. جاء وقرأ علىّ ختمة كاملة من أولها إلى آخرها ، عن طريق الشاطبية والدرة معاً ، بالتحرير والتجويد ، على أتم بيان وأكمل عنوان ، واستجازنى فأجزته بأن يقرأ ويقرىء فى أى مكان حل » .

ويقرظ الشيخ محمد المتولى شيخ القراء أول مؤلفاته : (فتح المقفلات) بقوله :

« ... أما بعد فقد أطلعت على هذا التصنيف البديع ، اللطيف الصنيع ، فوجدته فى غاية الضبط والإتقان ، ونهاية النفاسة والإحسان [شمساً فى الاقتدا] وبدراً فى الاهتدا ، فياله من عروس يفوح شذاه ، ويلوح سناه ، قد تجلى فيه بدر المعانى فى أصداف المبانى ، جعله الله خالصاً لوجهه الكريم ، وغفر لمن تلقاه بقلب سليم . وأوجب لمؤلفه رضوانه ، ووفقه للخير وأعانه . قاله بلسانه ، ورضيه بجنانه ، ذو التقصير الكلى ، محمد المتولى ، عفى عنه آمين . »

وكذلك قرظ كتابه (إرشاد القراء والكاتبين ، إلى معرفة رسم الكتاب المبين) ومما جاء فيه :

« ... أما بعد ـــ فقد سمعت هذا الكتاب الرائق ، والسفر البليغ الفائق ، فوجدته فى بابه آية ، قد بلغ من جادّة الإفادة الغاية . قد نظم مؤلفه فيه شمل المتفرقات ، بعد التفرق والشتات . ونبه على عجيب أوضاع الرسوم ، وبين فيه ما لأنواع الضبط من الرقوم ، يتعين على قراء القرآن الكريم مطالعته ، ويتأكد على كتاب المصاحف مدارسته ومراجعته . ويحتاج إليه من يريد التحرى والضبط ، حيث لم يقع له نظير فى علم الخط . كيف لا ومتعلقه أحد أركان القرآن ، وأهم ماتدعو إليه ضرورة المقرى على ممر الزمان . فياله من كتاب أينعت أثماره ، وسطعت بين سطوره أنواره . أوضح فيه مؤلفه خفايا الرسوم بأفصح إيضاح ، وفتح من أبواب رقوم الضبط لكل ضابط مطلوبه

بدون مفتاح . به أمن كتاب المصاحف من الزّلل ، وحفظوا إذ صاروا بسببه فى جُنةٍ من طوارق الخلل .

(فـــى كلّ لفظ منه روض من المـنى

وفى كلّ سطر منـــه عقدٌ من الدرّ)

جعله الله مقبولا لديه ، وسبباً للفوز يوم العرض عليه . قاله بلسانه ، ورضيه بجنانه ، ذو التقصير الـكلى ، محمد الشهير بالمتولى ».

وكذلك قرظ كتابه (شفاء الصدور) بقوله :

« ... أما بعد فقد أطلعت على هذا الـكتاب المسمى : « شفاء الصدور ، بذكر قراءات الأئمـة السبعة البدور » فوجدته صريح المبانى ، صحيح المعانى . مفيداً فى فنه ، فريداً فى شأنه . على جودة من التسهيل والتقريب ، وغاية من التحرير والتهذيب ، سيما وقد تضمن كتاب « حرز الأمانى » ليقبل على من تلقاه بوجه التهانى ، جعله الله مقبولا لديه ، وأثاب مؤلفه رضوانه يوم العرض عليه . آمين».

وقرظ الشيخ حسن الجريسى الملقب بالديب كتابه : « إرشاد القراء والـكاتبين ، إلى معرفة رسم الـكتاب المبين » ، كما قرظه أيضاً العالم الجليل السيد محمد عوض الدمياطى تقريظات تعبر عن تقديرهما لهذا المؤلف .

وكان لنبوغ الشيخ رضوان فى علمى القراءات والرسم أثر فى تصويب

المصاحف وتحقيق نشرها ، فأشرف على طبع مصحف وضع له مقدمة ، نشره الشيخ أبوزيد سنة ١٣٠٨هـ ١٨٩٠م . ويعتبر من أضبط المصاحف . وقد تلقى عليه كثيرون ، واستفادوا من علمه وأجازهم ، وقد وقفت على إجازة منه إلى تلميذه الشيخ محمد البدرى .

ولم يكن نبوغ المترجم مقصوراً على علوم القرآن ، بل نبغ فى العلوم الشرعية والعقلية والعربية والأدب ، فدرس النحو فى مدرسة حافظ باشا ، وتتلمذنا عليه ، فأخذنا عنه العلوم العربية والفنون الأدبية ، وكان رحمه الله يفتخر بالأخذ عنه . كما تتلمذ عليه من أولاد شقيقتنا المغفور لها السيدة عائشة : محمود وإسماعيل .

وتولى الخطابة فى مسجد جوهر المعينى القريب من داره بغيط العدة ، وخطب احتساباً فى مسجد سلطان شاه ، وكان يلقى درساً فى مسجد الأمير حسين ويخطب فيه الجمعة أحياناً .

وقد بارك الله فى حياته ، فأنتج إنتاجاً علمياً فى مختلف العلوم ، كما نقل الكثير من المؤلفات بخطه ، وكتب نسخاً من مؤلفاته أودعت المكتبات العامة ، فضلا عن نسخه الخاصة .

انتقل إلى رحمة الله تعالى فى يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣١١ هـ ودفن فى جبانة باب الوزير بالقرب من الضريح المعروف بمحمد بن الحنفية ، وترك مجموعة من المؤلفات القيمة مازالت مخطوطة ، وهى :

١ ـــ كتاب فتح المقفلات ، لما تضمنه نظم الحرز والدرة من القراءات ، أوله : الحمد لله الذى أودع كتابه العزيز كنوز معانى العلوم . فرغ من تأليفه فى الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ١٢٨٦ هـ . وهو مؤلف كبير فى ٢٢٤ ورقة مسطرة ٢١ سطراً . ويقول فى ختام الكتاب : « يقول مشيد مبانيه ، ومحرر ألفاظه ومعانيه ، هذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى من جمع هذا الكتاب المستطاب ، الصافى ورده لأولى الألباب . فلقد أعملت الفكرة فى تنقيحه ، وبذلت الجهد فى تصحيحه ، حسبما تلقيت عن أشياخى السادة الكرام ، مع مراجعة نفائس النفوس من الرغبات . والمرجو ممن طالع فيه فاطلع على هفوة أو زلة ألا يبادر قبل التحقق بالإنكار ، فذلك أمرٌ لم يسلم معه من كان مثله .

(والعذر عند خيار الناس مقبول

واللطف من شيم السادات مأمول)

والكريم من يقبل العثرات ، ويعفو عن السيئات ، خصوصاً من مثلى البائس الفقير ، فإن ذهنى كليل وسهوى كثير ، وأى لسان من الأنواع البشرية ـ ماعدا الحضرات النبوية ـ مصون عن الغلط ، أو أىّ مؤلف ألف بين العالمين حتى قيل من جميعهم ما أخطأ قط .

وإذا كنت أيها الأخ تعلم أن ذلك أمر جائز عليك ، وهذا المؤلف شىء قد ساقه الله بلا مشقة عليك إليك ، فاحمد الله مولاك ، وقابل بالجميل

واعذر أخاك . واشكر للناس ، فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ومن نظر إلى عيب أخيه ونسى عيب نفسه فقد عميت عيناه . ثم خذ الدر من الصدف ، وانتهز الفرص فإنها صدف . وانظر إلى القول دون القائل ، وإلاّ فليس ذلك تحته طائل . ولا تأخذك العزة استكباراً ، ولا تحملك الأنفة على الإعراض استحقاراً لصاحبه واستصغاراً . بل انظر نظر مستخبر مستبصر ، فإن رأيت ما يسرك فاقبل وأقبل وإلا فأدبر . والحمد لله على ما يوليه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه».

وبهذا الختام الملىء بالتواضع والاعتزاز ختم الكثير من مؤلفاته . ومنها :

٢ ــ كتاب شفاء الصدور ، بذكر قراءات الأئمة السبعة البدور . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩١ هـ ــ ١٨٧٤ م .

٣ ــ أرجوزة فى التوحيد ، فرغ من تأليفها سنة ١٢٩٣ هـ ــ ١٨٧٦ م .

٤ ــ انتشاق النفحات المسكية ، من طى تخميس البردة الشريفة المحمدية . فرغ من نظمها سنة ١٢٩٤ هـ ــ ١٨٧٧ م .

٥ ــ انتشاق الروائح المسكية ، من طى تخميس القصيدة النونية السويجمية ــ للإمام اللوذعى عبد الرحيم البرعى فرغ من نظمها سنة ١٢٩٤ هـ ــ ١٨٧٧ م .

٦ ــ كتاب إرشاد القراء والكاتبين إلى معرفة رسم الكتاب المبين فى ١٩٠

ورقة مسطرة ٢١ سطراً . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩٦ هـ ـــ ١٨٧٩ م .
أوله : الحمد لله الذى رسم فى صحائف الأوقات خطوط لطائف الإتحاف ...

٧ ـــ القول الوجيز ، فى فواصل الكتاب العزيز . أوله : الحمد لله الواحد لا من قلة وعدّ ، الأحد فما له من كيفية ولاحد . فرغ من تأليفه سنة ١٢٩٧ هـ ١٨٨٠ م . وعدد أوراقه ١٠٦ مسطرة ٢١ سطراً .

٨ ـــ الإفاضة الربانية ، بشرح ألفاظ البردة المحمدية . فرغ من تأليفه سنة ١٣٠٥ هـ ـــ ١٨٨٧ م . أوله : حمداً لمن أطلع أزهار الأسرار فى رياض الأفكار بتسبيح الأشواق ، وأسجع بلابل الأيك فى البكور والآصال بتحميد العشاق ، جل شأنه منّ على أهل المحبة والوداد ، باقتفاء آثار أشرف العباد ، محمد صفوة الخلق ... وهو شرح كبير فى ٢٠٠ ورقة مسطرة ٢١ سطراً .

٩ ـــ رسالة فيما رواه ورش فى موضوع « آلآن » من طريق «حرز الأمانى » أولها : حمداً لمن أنزل القرآن نوراً ... فرغ من تأليفها سنة ١٣٠٨ هـ ـــ ١٨٩٠ م .

١٠ ـــ مقدمة مصحف ، طبع سنة ١٣٠٧ هـ ـ ١٨٩٠ م .

١١ ـــ ديوان خطب منبرية (الكوكب السائر ، فيما يتعلق بخطب المنابر) .

١٢ ـــ اللؤلؤ المنظوم ، فيما يلزم من الشروط فى حق الإمام والمأموم . وهى رسالة فى شرح منظومة له فيما يتعلق بالمأموم والإمام . فى ٣٠ ورقة مسطرة ١٥ سطراً ، فرغ من تأليفها فى شهر المحرم سنة ١٣٠٨ هـ

ولما توفى(١) رحمه الله رثاه أحد الفضلاء بهذه الأبيات :

مالعروض الدمع فاض هاطلا ... يجرى دما على الخدود نازلا
أظنّ فى مصر قضى إمامها ... نحباً ، وجدّ للكريم راحلا
وذاك رضوان النجيب المنتقى ... من بالقران زيّن المحافلا
فكم تآليف له .. بفنه ... منها سقى القراء عذباً سائلا
وكم لطه صاغ أغلى مِدَح ... كبردة ألبسها غلائلا
حين لمولاه على الطهر سرى ... وبات ضيفاً للكريم آملا
رحمة ربى نظّمت تاريخه ... رضوان للجنان جدّ نائلا

١٠٥٧ ١٦٤ ٧ ٨٣

١٣١١ هـ

(١) لما عنيت الحكومة بطبع المصحف الكريم فى سنة ١٣٤٢ هـ بإشراف نخبة من العلماء كان اعتمادها فى ضبطه على مؤلفيه : (١) إرشاد القراء والكاتبين (٢) القول الوجيز فى فواصل الكتاب العزيز .

حسن الطويل

١٢٥٠ هـ — ١٣١٥ هـ

هو شيخنا الإمام العلامة حسن بن أحمد بن على ، شيخ الشيوخ وأستاذ الأستاذين ، وأحد من تفرد فى مصر بالبراعة فى المعقول والمنقول . أتقن العلوم العديدة مع الزهد الصحيح والورع وعلو النفس والتأدب بآداب الشرع والتمسك بالكمالات . ولد ـ كما سمعت من تلميذه الخاص الشيخ أحمد أبى خطوة ـ بقرية منية شهالة ، إحدى قرى المنوفية حوالى سنة ١٢٥٠ هـ . وذكر الشيخ بشير الظافر فى كتابه «اليواقيت الثمينة ، فى أعيان مذهب عالم المدينة» أنه ولد سنة ١٢٥٦ هـ .

وتربى بهذه القرية ، فقرأ القرآن الكريم وحفظه ، ثم انتقل إلى طنطا وهو صغير ، فاشتغل بتجويد القرآن وحفظ المتون بالمسجد الأحمدى نحو سنتين أو ثلاث . ثم حضر للقاهرة واشتغل بطلب العلم بالجامع الأزهر ، فقرأ على شيوخ العصر مثل الشيخ محمد عليش المالكى ، والشيخ حسن العدوى الحمزاوى ، والشيخ إبراهيم السقا ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ محمد الإنبابى ، والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى . فظهرت عليه النجابة ، وابتدأ فى حضور « السعد » . وكان من دأبه فى أول أمره معاكسة الشيوخ فى الدروس بكثرة

الأسئلة والمناقشات . حتى حدث ما اضطره إلى الانقطاع عن الأزهر . وسبب ذلك أن أبناء العمد وأقاربهم طلبوا للدخول فى الجندية بقانون وضع لذلك فى عهد سعيد والى مصر سابقاً . ولما كان المترجم من أقارب بعض مشايخ قريته ، طُلب وجند ، وبقى مواظباً على الصلوات والأوراد ، وكان الوالى يكره من الجند من يصلى . . .

وحدث أن المترجم جاءه من شيخه الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى كتاب فيه استغاثة يأمره بتلاوتها عقب كل صلاة ، رجاء أن تفرّج كربه وتخلصه من الجندية ، فوقع الكتاب فى أيديهم ، وعدوه لذلك مذنباً ، وكان عقاب المذنبين عندهم إهمال تعليمهم الفنون العسكرية وتشغيلهم فى السكك الحديدية وما أشبهها من الأعمال الشاقة ، فكان المترجم يشتغل فى هذه الأعمال بهمة زائدة تأديباً لنفسه ، لأنه ظن ما وقع له عقاباً على جراءته على مشايخه ، وكان سعيد باشا يلقب المطيعين من الجند بالفراعنة ، والعاصين المذنبين بالنمارة ، فغضب مرة على النمارة وأمر بطردهم من الجيش ، فخرجوا منه ، إلا أنهم بقوا تابعين ، وهم ما كانوا يسمونهم « بالعساكر الإمدادية » وخرج المترجم معهم ، فأقام بقريته مدة .

وكان قبل ذلك يجتمع مع الشيخ خالد أحد مشايخ الطرق ، فرأى أن يسافر إليه ، فسافر إلى بلدته المسماة بالسريرية من أعمال «منية ابن الخصيب[1]»

---

(١) محافظة المنيا الآن .

ولزمه بضعة أشهر عكف فيها على الاشتغال بالعلم والطرق الصوفية .

ثم طلب إلى الجندية مرة ثانية ، فذهب إليه أبوه ليحضره ، من عند الشيخ خالد ، وحاول هذا منعه فلم يرض ، بل عاد مع أبيه إلى قريته ، وتبين أنهم أهملوا طلبه ، فحمد الله .

وأمره والده بالبقاء معه فى القرية ، وحظر عليه أن يعود إلى الصعيد ، فضاق المترجم بهذا الأمر ، وخرج من القرية بغير علم أبيه وهو لا يملك شيئاً ، وقصد القاهرة ما شيأً ، يبيت فى أية بلدة تصادفه ، حتى وصل .

وذهب إلى الأزهر ، فصادف الشيخ محمد السقارى فى طريقه ، فلما رأى المترجم أسرع إليه وهش له ، وأخبره أنه يطلبه من مدة ، ثم أنزله بداره ، وحلف أن يبقى بها شهراً لا يتكلف شيئاً من عنده . وكان مراد السقارى أن ينظم قصيدة يمدح بها أحد الأمراء ، فنظمها له ، وأخذ السقارى عليها أربعين ديناراً جائزة .

ولما انقضى الشهر حف الله المترجم بعنايته ، فطلبه الشيخ حسن المدوى لتصحيح البخارى ، وكان قد شرع فى طبعه ، فانتفع بأجر التصحيح . ثم طلب إلى ديوان الجهادية لتصحيح ما يطبع به ، فقابل هناك أحمد عبيد بك رئيس الترجمة ، وامتحنه فأعجب به ، وكاد يطير فرحاً ، وقال عنه : « هذا جوهرة خفيت علينا » واستخدمه للتصحيح بالديوان ، وسعى له حتى محوا اسمه من الجيش ، حتى لا يعاد طلبه .

وفى هذه المدة عاد المترجم لطلب العلم والاشتغال به ، مع القيام بالتصحيح بالديوان ، حتى شهد له شيوخه بالتأهيل للتدريس ، فدرس بالأزهر . وكان أول درس قرأه فى شوال سنة ١٢٨٣ هـ وابتدأ فيه بالقراءة فى الأزهرية . ولم يقتصر رحمه الله على العلوم المتداولة بالأزهر ، بل بحث ونقب ، واجتمع بالشيخ محمد أكرم الأفغانى فتلقى عنه العلوم الحكمية ، وبرع فيها ، وتلقى عن تلميذه خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملى ، ونظر فى الهندسة والجبر وسائر العلوم الرياضية ، وقرأ التاريخ قراءة إمعان وتدبر ، وطالع كتب اللغة والأدب ، ونظم الشعر السهل ، وكتب الترسل البديع ، وكان لا يسمع عن أحد يعرف علماً إلا سعى إليه ليتلقاه عنه كائناً من كان ، حتى صار نسيج وحده ، وفريع دهره فى سائر العلوم ، مع بعد النظر فى السياسة ، وسعة العقل ، وسلامة العقيدة ، وشدة الإنكار على البدع المستحدثات فى الدين .

وقد قرأ عليه فى الأزهر كثيرون من علمائه المشهورين . فكان الشيخ الأجل أحمد أبو خطوه ، والشيخ الإمام محمد عبده ، والسيد أحمد الشريف ، وإبراهيم (بك) اللقانى ، والشيخ محمد راضى البولينى ـ فى الطبقة الأولى من تلاميذه .

ثم قرأت عليه طبقة ثانية منها الشيخ عبد الرحمن فودة ، والشيخ محمد الفرينى ، والشيخ عبد الرحمن قراعة . وقرأ عليه أيضاً الشيخ محمد بخيت ، والشيخ داغر ، والشيخ محمد المغربى ، والشيخ أحمد الزرقانى ، وغيرهم ممن لا يحصون ، واختص به الشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ

راضى البولينى ، والشيخ عبد الرحمن فوده ، والشيخ عبد الرحمن قراعة . فكانوا يقرأون عليه فى داره دروساً غير الدروس الأزهرية ، وصحبوه ولازموه ، فانتفعوا به فى دينهم وأخلاقهم ، فوق انتفاعهم بعلمه .

ثم نقل إلى نظارة المعارف ، وعين للتفتيش فيها . ولما مات الشيخ زين المرصفى مفتشها الأول سنة ١٣٠٠ هـ وأقيم بدله الشيخ حمزه فتح الله المفتش الثانى جعل المترجم مفتشاً ثانياً . ثم نقل مدرساً بمدرسة دار العلوم . فعم الانتفاع به وتخرج عليه أحسن من نراهم الآن(١) من الأساتذة المتخرجين فى هذه المدرسة ، كالشيخ الفاضل حسن منصور ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ عبد الوهاب النجار .

وبقى فى هذه المدرسة إلى سنة ١٣١٧ هـ وكانوا قد شرعوا فى الامتحان قبل الاجازة المدرسية كالعادة ، فلما كانت ليلة السبت ١٧ صفر سهر كعادته ، ثم ذهب لداره معافى ليس به شىء ، واستيقظ فتوضأ وصلى الصبح ، ثم طلب الإفطار والقهوة ، وأخذ غفوة كان فيها القضاء المحتوم ، فلم تشرق شمس ذلك اليوم إلا والنعاة ينعونه ، والمؤذنون يؤذنون على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وأم داره شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، والشيخ محمد عبده المفتى ، وجميع العلماء والفضلاء ، وكبار نظارة المعارف ، وتلاميذه من الأزهر ودار العلوم ، وشيعت جنازته تشييعاً سنياً ، فصلوا عليه فى الأزهر ودفنوه بمقابر المجاورين . رحمه الله وغفر له عدد حسناته .

---

(١) أى فى عهد المؤلف المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله

و كان من عادته الخروج إلى الريف كل خميس ترويحا للنفس ، فكان يذهب إلى الأميرية من ضواحى القاهرة عند تلميذه الشيخ عبد الرحمن فوده ، فيقضى عنده الخميس والجمعة ويعود يوم السبت ، فلما عرفتُه صار يذهب للأميرية بعض الأخمسة ويسافر فى بعضها إلى ضيعتنا التى بقويسنا ، أو إلى حلوان حينما نسكن بها شتاء ، فكنت أقضى معه هذين اليومين فى مطالعة واشتغال ، حتى فى حالة المشى والتنزه كنت أحمل الكتاب معى وأسمعه فيه ، فيقرر لى المسائل ونحن سائران .

وكان رحمه الله سنيّ العقيدة ، صوفى المشرب ، لايحيد عن الشرع قيد إصبع ، آخذاً بمذهب الإمام ابن تيمية فى مسألة الاستغاثة بالقبور والاستشفاء بالموتى ، منكراً على المبتدعة أشد إنكار . آية من آيات الله فى معرفة التفسير وحل مشكلات الكتاب المبين ، متضلعاً من الحديث ، متحصناً بالشريعة فى كل علم يقرؤه من كلام أو حكمة أو تصوف أو رياضيات أو طبيعيات . وخص باستحضار الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الاستشهاد بها على حل المشكلات الدينية ، فكان أمره فى ذلك عجباً ، وشأنه فيه مستغربا — ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ومع انحراف علماء الأزهر عنه ، لإنكاره عليهم بدعهم وما درجوا عليه ، فإنهم كانوا مقرين بفضله ، وكثيراً ما كانوا يحتاجون إليه فى معرفة أسرار الشريعة ، وحل مشكلاتها ، والرد على الطاعنين عليها من أرباب النحل الأخرى أو المرتدين .

أما أخلاقه فزهد غريب ، وعلو نفس عن الدنايا ، وبعد عن الرياء ، وتواضع مع كل إنسان ، وسذاجة فى المطعم والملبس والمسكن . لاينفق على نفسه من مرتبه إلا القليل ، ويتصدق بالباقى فى الخفاء ، فلما مات قام الصراخ فى دور كثيرة يسكنها فقراء وأرامل ، كان يعولهم كل شهر بما فضل من نفقته ، وما علم بهم أحد قبل موته ، حتى أقرب الناس إليه ، وأخصهم به .

وكان كثير الاشتغال بأمور المسلمين ، دائم الهموم لما أصابهم من التأخر فى مشارق الأرض ومغاربها ، منتظراً فرجاً يأتيهم ، ولطفاً من الله يحفهم ، فتقوم فيهم دولة شعارها الدين ، تقوى على جمع شملهم . ولذلك لما قام المهدى بالسودان ، وانتصر انتصارته المشهورة ، واستولى على البلاد السودانية ، أحسن المترجم فيه الظن ، وقام بنصرته بقلبه ولسانه ، وبلغ الإنجليز ذلك ، فسيروا وراءه عيناً يخبرهم بحركاته وسكناته ، وكاد يقع فيما لا نحمد عقباه ، لو لا أن سلمه الله .

ولمداومة اشتغاله بالإقراء وتربية النفوس لم يؤلف تأليفاً — غير أن نظارة المعارف لما كلفت كل مدرس أن يجمع ما يلقيه من الدروس ، وكان يدرس التفسير بمدرسة دار العلوم[1] شرع فى جمع ذلك فى كتاب سماه «عنوان البيان» لم يطبع منه غير المقدمة — سنة ١٣١٦ هـ أى قبل وفاته بسنة .

---

(١) كلية دار العلوم (الآن)

ومن غريب المصادفات أنه زارنى[١] قبل وفاته بيومين فى ليلة مقمرة فجلسنا فى صحن الدار نلعب الشطرنج ، وكان مولعاً به مع قلة إجادته فيه ، فقال لى عندما أراد الذهاب : نحن الآن فى الامتحان ، وقد قربت الإجازة ، وصدرى ضيق فى هذه الأيام من الناس ، ونفسى تجنح للعزلة . فهل تعرف لى مكاناً أقضى فيه بعض أيام بعيداً عنهم ؟ فقلت : ياسيدى ، إذا انتهى الامتحان فالأوفق أن نسافر معاً إلى ضيعتنا التى بقويسنا فنخلو فيها بكتاب نقرؤه ، فقال : نعم الرأى هذا ، وسأستصحب معى ولدى حسناً ليشترك معنا فى القراءة . ثم لم يمض يومان حتى نقله الله إلى جواره ، ويسر له العزلة ولكن فى دار قراره ، فأصبت فيه مصيبة لم أصبها فى بعيد ولا قريب ، لما كان له علىّ من الفضل ، ولو لم يكن له علىّ سوى تصحيح العقيدة وتأديبى بآداب الحنيفية السمحة لكفى .

أما سبب اجتماعى به وقراءتى عليه فإنى كنت خرجت من المدارس بعد تلقى ما يتلقى بها من العلوم المعروفة وأنا فى سن العشرين . وقد علق بالعقيدة شىء من آثار التربية بهذه المدارس ، إلا أنى كنت مولعاً من الصغر بالإسلام ومحاسنه ، والمطالعة فى السيرة النبوية ، ومناقب الأصحاب والخلفاء الراشدين ، فكان ينشرح صدرى لأشياء ، وينقبض من أشياء تعرض لى فيها شبهات ، ثم كنت أعرض ما يظهر لى من مكارم الشريعة ومقاصدها على ما عليه الناس من البدع والمحدثات التى تمسكوا بها وجعلوها من الأصول الدينية ، فأجد

---

(١) أى زار المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا .

التناقض والتصادم ، فصرت أتردد على كثير من كبار علماء الأزهر وغيرهم ، لعلى أجد عندهم مفرجاً ، فأراهم أحرص من العامة على هذه الخزعبلات ، حتى كدت أحكم بأنها من الدين ، وأن الأمر دائر بين شيئين ، فإما أن يكون الدين دين خرافات وخزعبلات تنفر منها الطباع السليمة ، وإما أن يكون ما نراه حقاً ، ولكن يمنعنا من قبوله إلحاد تأصل فى النفس . حتى أرشدنى بعض الأصحاب للمترجم ، فأخذت فى السؤال عنه من أهل العلم ، فكانوا ينفرونى منه ، حتى بالغ بعضهم — عامله الله بما يستحق — ورماه بالزندقة . فقلت : إذا كنت لم أجد طلبتى عند من تسمونهم بالصلاح والورع ، فلعلى أصيبها عند الزنادقة . ثم سعيت فى الاجتماع به ، وسألته القراءة عليه والاهتداء بهديه ، فقرأت عليه العلوم العربية والمنطق ، وأعدت عليه الصرف بتوسع ، وعلوم البلاغة . ثم قرأت طرفاً من الحكمة فى شرح الدوانى على هياكل النور للسهروردى ، وشرح « رسالة الزوراء » وغيرهما . ولما رآنى مجداً فى التحصيل ، قرر لى درساً ثانياً بعد العشاء كنا نقرأ فيه كتب الأدب ونحوها . وأنا فى كل هذه المدة أستوضح منه ما أشكل علىّ فيحله لى ، فكان اجتماعى به ومصاحبتى إياه من أكبر نعم الله علىّ فى دينى .

وكثيراً ما كان يغضب منى ويؤنبنى إذا رأى منى تهاوناً فى الصلاة . فعليه رحمة الله تعالى .

مُصطفى السَّفطي

١٢٥٠ — ١٣٢٧ هـ

الشيخ مصطفى السفطى ابن مصطفى الفاكهانى السفطى ابن على السفطى ابن أحمد شلبي ، نسبة إلى سفط القطايا .

ولد بمصر القاهرة حوالى سنة ١٢٥٠ هـ وأرسل إلى المكتب فى السابعة من سنيه ، ثم تنقل من مكتب لآخر حتى حفظ القرآن الكريم ، واشتغل بتجويده فى الأزهر ، ثم شرع فى طلب العلم على شيوخ عصره ، فقرأ الكفراوى على أحد العلماء المبتدئين فى التدريس ، فكان يحفظ العبارات ولا يفقه لها معنى . ولما أعيا عليه أمره ، وتعذر عليه إعراب أمثلة من غير هذا الكتاب أعاد قراءته ولكنه لم يستفد شيئاً . وكان بجوار داره دار السيد أحمد البقلى أحد المدرسين بالمدارس ، وله ولد أراد أن يقرأ القرآن مع المترجم ، فشكا المترجم له من تعسر النحو عليه ، فأشار عليه بشراء متن الآجرومية وأمره أن يحفظه ، ثم شرع فى إعرابه له على الطريقة الأزهرية فلم يستفد شيئاً أيضاً ، وشكا من ذلك للشيخ محمد الدمنهورى فأمره بترك طلب النحو كلِّيَّةً ، حتى ينسى ما علق بذهنه منه ، ففعل واقتصر على الفقه ، فحضر ابن قاسم على الشيخ البيجورى ، وكان يتفهمه بخلاف النحو ، فمالت نفسه إليه فحضره مرة ثانية على الشيخ فتوح البجيرمى ، ثم مرة ثالثة على الشيخ عبد الرحمن

القبانى أحد تلاميذ الشيخ فتوح المذكور ، وكان يطالعه لإخوانه المبتدئين .

ثم قرأ الكتب المتداولة بالأزهر ، ولم تفتر نفسه عن طلب النحو على ما لاقاه فيه من الصعوبة ، فصار يتردد على الشيخ محمد الدمنهورى ومعه متن الآجرومية فقط ، وصار الشيخ يقول له : اقرأ هذه الجملة ، ثم تفهم معناها بنفسك ولا تنظر لأقوال الشرح ، فيفعل ـ فتارة كان يخطىء وتارة يصيب . وسهل عليه فهم هذا العلم بهذه الطريقة . وكان أحد أصحابه مبتلى بمثل ما ابتلى به . وأخبره أن عند على أفندى العروسىّ شرحاً للرملى على الآجرومية فاستعاراه منه وقرآه معاً ، فكانا يفهمان ما فيه فهماً جيداً .

ثم اجتمع المترجم بإنسان كفيف البصر اسمه الشيخ على الفيومى له باع فى العربية ، فقرأ عليه مع صاحبه كتاب الشيخ خالد والأزهرية والقطر وابن عقيل . ثم أعاد المترجم القطر على الشيخ الشبينى بالأزهر ، وقرأ الخطيب على الشيخ على الأشمونى عم الشيخ محمد الأشمونى الشهير . وقرأ التحرير والمنهج على الشيخ مصطفى المباط ، وهو آخر حضوره فى الفقه .

ثم قرأ علوم البلاغة بالأزهر ، وقرأ العروض مع إعادة البيان بالمطالعة مع بعض تلاميذ رفاعه (بك) كقدرى (باشا) وإبراهيم (بك) مرزوق .

وبعد ذلك انتخب مدرساً بالمدرسة التجهيزية سنة ١٢٩٠ هـ فى أول نظارة رياض (باشا) على المعلوف . وكانوا إذ ذاك يقرأون بها الأنموذج للزمخشرى فى النحو ، ثم كلف بتأليف رسالة فى الصرف ففعل ، وقرأها للتلاميذ نحو ثلاث

سنوات ، ثم اتفق مع بعض المدرسين على تأليف رسائل فى البلاغة والصرف ، بتوسع أبسط من الرسالة الأولى ، وقرأ بها سنوات .

ثم أمر بقراءة العروض والقوافى فى المدارس ، فاستحسن رسالة أبى الجيش وأقرأها . ثم وضع رسالة فى العروض والقوافى أتم بها ما أراده أبو الجيش ، ولكن وقع ما منعه من تقديمها للمدارس ، ثم كلف بوضع رسالة فى علم الرسم فوضع رسالته « عنوان النجابة فى قواعد الكتابة » وقرئت بالمدارس .

ونقل بعد ذلك للمدرسة الابتدائية المسماة « بالمبتديان » وكان ذلك سنة ١٣٠٦ هـ فألف بها رسالة بالاشتراك مع غيره فى المترادفات . ثم نقل إلى المدرسة السنية الخاصة بتعليم البنات فبقى بها سنتين ألف فيها رسالته « محاسن الأعمال » ولما عرضت على المجلس العالى بنظارة المعارف استحسنها أعضاؤه جداً وقالوا : الأولى أن تكون بيد المعلمات لا بيد المتعلمات .

ثم أخذت قوته فى الوهن ، وبصره فى الضعف ، لكبر السن . فعرض استقالته على النظارة ، مبيناً السبب ، فأحيل على الكشف الطبي ، ثم أحيل على المعاش .

وله من التآليف غير ما تقدم ، رسالة فى الصرف اسمها : « قرة الطرف » أوسع من المتقدمة ، وأخرى فى النحو وهى : « منحة الوهاب فى قواعد الإعراب » وهى نظم . ومن شعره :

الحمد لله لا فقر يضر ولا غنى يغر فلا حزنٌ ولا فرحُ

وليس لى مطمع فى الناس يلجئنى
للذمّ والمدح إن ضنّوا وإن سمحُوا
وأسأل الله حاجاتى فيمنحنى
من فضله فوق ما أهوى وأقترحُ

ولـه :

قد يسر الله أسباب المعاش لنا
بالعقل ، والرزق موقوف على القسم
ليعلم العبد أن الله يرزق من
يشاء بالفضل ، لا بالسعى والهمم
فيطلب الرزق بالأسباب معتمداً
على الذى أوجد الأشياء من عدم
ولا يخاف ولا يرجو سواه ولا
يحيد عن منهج الأحكام والحكم

وكان رحمه الله طيب الخلق ، حسن المعاشرة ، اعتكف فى داره بعد فصله من المدارس وعكف على الاشتغال بالعبادة ومذاكرة العلم مع من يسمر معهم من إخوانه وأخلائه أو استقلالا بنفسه . وكان فى مبتدأ أمره مولعاً بالسماع وتشبث بتعلم الموسيقى ، فلازم الشيخ محمداً شهاب الدين الشاعر المشهور ، وكان

متقناً لها ، فأخذها عنه وأتقنها . ولكثرة مطالعته لكتب الأدب صارت له ملكة أدبية ومعرفة بجيد الشعر ونقده .

ثم ما زال على هذه الحالة المحمودة حتى أرهقه الكبر ، وضعف عن المشي ، فلزم داره ، لا يخرج إلا لصلاة الجمعة فى أقرب مسجد إليه ، ومع ذلك فلا يبلغه إلا بمشقة زائدة . وتوفاه الله إلى رحمته فى يوم الثلاثاء ٢١ رمضان سنة ١٣٢٧ هـ .

أحمد الرفاعي [1]

١٢٥٠ هـ — ١٣٢٥ هـ

اشتغل الشيخ أحمد الرفاعي بالحضور في الأزهر على مشايخ وقته، حتى تأهل للتدريس، فدرس الكتب المتداولة، وقرأ عليه كثيرون من كبار علمائه — كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت، والشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي، والشيخ محمد حسنين العدوي، والشيخ محمد النجدي الشرقاوي، وغيرهم. وقد أصبح في أواخر أيامه وليس في الأزهر إلا من هم من تلاميذه أو في طبقتهم، إلا الشيخ عبد الرحمن الشربيني والشيخ سليم البشري.

وكان من عادته ألا يقطع الإقراء طول السنة، ولا يسامح في أوقات المسامحات، ولا يقعده عن الاشتغال بالتدريس إلا المرض، فقرأ الكتب المتداولة مراراً، ومهر فيها بسبب كثرة اشتغاله، حتى صار المستعصي منها عنده بمنزله السهل عند غيره. وأتقن فن التجويد فجعل شيخاً على المقارئ مدة طويلة.

ولما أقيم الشيخ حسونة النواوي شيخاً على الأزهر في المرة الأولى، ولم يجد له إقبالا من علمائه، صاحبه المترجم وتحبب إليه، ولازمه في غدواته

---

(١) مكتوب في الهامش بخط المؤلف: وله ترجمة في «اليواقيت الثمينة» للبشير. اهـ.

وروحانه . ثم لما انحرف الخديو السابق عباس بن توفيق عن الإمام الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر ، وأراد كف يده عنه ، ساعده المترجم على ذلك وأخذ فى معاكسة الشيخ وتدبير المكايد له ، وتنفير الأزهريين منه ، وتقرب من الخديو ، وأكثر من التردد على قصر القبة ومداخلة الحاشية ، حتى حظى عنده ، وأقبل عليه إقبالا عظيماً ، فلما عزل الخديو الشيخ سليم البشرى عن الأزهر فى ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ وأراد إرجاع الشيخ حسونه النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت ولم يرض النظار ، رشح المترجم واستدعاه وأعلمه بانتخابه له ، فعاد إلى داره جذلا وأشاع الأمر ، وهيأ السُكَّر لشرب المهنئين ، والرمل الأصفر لفرشه بصحن الدار ، وكاد الأمر يتم له لولا أن بعض مبغضيه من المقربين للخديو صرفه عن توليته ، وذكر عنه هنات ، الله أعلم بها ، فعدل الخديو عن تنصيبه ، والتمس لنفسه مخرجاً من وعده الذى وعده به ، فأعمل بعض المقربين الحيلة ، واستدعوه بحضرة الخديو وسألوه عن قبوله التولية ، فقال لهم :

نعم ولانى مولاى الخديو وقبلت .

فأخذوا يذكرون صعوبة مراس أهل الأزهر ، والمشاق التى يعانيها شيخهم لإخضاعهم ، ولمحوا له أنهم لايظنونه يقوى عليهم . فقال : ومن أهل الأزهر ؟ أنا أدوسهم بقدمى .

فقالوا : إنك ستكون مع الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان

العضوين بمجلس الإدارة ، فهل ترضى بأن يشاركاك فى الإدارة ؟ وكيف يكون شأنك معهما ؟

فقال : كلا ، لا أرضى أن يشاركانى ، بل أشترط لقبول التولية عزلهما ، وهما عندى كافران لا يوثق بهما !

فاستغرق الخديو فى الضحك وقال : شرطك لا يمكن تنفيذه ، ونحن نريحك من رياسة الأزهر ، ونعوضك عنها بشىء نجريه عليك من الأوقاف . فأسقط فى يده ، ورضى مرغما . ثم صرفوه .

ثم وقعت منه فى أواخر أيامه زلة . قيل إنه تصرف فى وقف بغير وجه شرعى ، ولكن الله لطف به ، فلم يقع له بسبب ذلك غير فصله من المقارىء ، وكثرت غمومه وهمومه لما لاكته الألسنة فى هذه المسألة ، فانقطع عن التدريس لمرض أصابه ، إلى أن توفى بعد ظهر يوم الاثنين ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ هـ ودفن يوم الثلاثاء ، وأذنوا له على المآذن كالعادة فى موت كبار العلماء ، وقد بلغ من السن نحو خمس وسبعين سنة . وكان قصيراً دحداحاً خفيف الحركة ، رحمه الله وتجاوز عنه .

وله من المؤلفات : حاشيته على شرح لامية الأفعال لابن مالك ، طبعت بمصر .

علي محمد البلاوي

١٢٥١ هـ — ١٣٢٣ هـ

هو السيد علي بن محمد بن أحمد المالكي الحسني الإدريسي ، من قرية ببلاو ، التابعة لعمل ديروط الشريف من أعمال مديرية أسيوط ، ولد بها في شهر رجب سنة ١٢٥١ هـ ، ونشأ بها فحفظ القرآن ومبادىء العلوم ، وحضر للأزهر سنة ١٢٦٩ هـ فقرأ به على شيوخ وقته كالشيخ محمد عليش ، والشيخ منصور كساب ، والسيد محمد الصاوي ، والشيخ علي مرزوق ، والشيخ إبراهيم السنجلني ، والشيخ أحمد الإسماعيلي ، والشيخ محمد الإنبابي ، والشيخ علي بن خليل الأسيوطي ، وكان له به نوع اختصاص في الحضور ، وصحب مدة حضوره الشيخ حسونة النواوي ، فكانا يسكنان معاً ، ويحضران معا الدروس إلا في درس الفقه ، فإن المترجم كان مالكياً والشيخ حسونه النواوي حنفياً .

ولم يزل يجد ويجتهد حتى تأهل للتدريس ، فدرس بالأزهر والمسجد الحسيني الكتب المتداولة ، وفي سنة ١٢٨٠ هـ سافر للحجاز فحج . ثم استخدم بدار الكتب بالقاهرة مغيراً ، حتى كانت الثورة العرابية ، واتجهت الأنظار لتنصيب المصريين في المناصب الكبيرة ، فساعده صديقه ومريده محمود سامي باشا البارودي على إقامته ناظراً على هذه الدار سنة ١٢٩٩ هـ فتمت له نظارتها بعد ما سعى كثيرون لها فلم يوفقوا .

ثم لما هدأت الأمور ، وانتهت الثورة ، كان المترجم يتوقع القبض عليه كما فعل بكثيرين، للعلم بأنه من صنائع البارودى ، ولكن الخديو السابق توفيق رأى الاكتفاء بفصله من دار الكتب وتعيينه خطيباً فى المسجد الحسينى ، ثم جعل شيخاً لخدمة هذا المسجد فى ثانى صفر سنة ١٣١١ هـ

ولما غضب الخديو على السيد محمد توفيق البكرى نقيب الأشراف وشيخ الطوائف الصوفية وأمره بالاستقالة من النقابة فاستقال ، سعى للمترجم صديقه ورفيقه فى الحضور الشيخ حسونة النواوى وكان إذ ذاك رئيساً لمجلس إدارة الأزهر قبيل إقامته شيخاً عليه ، فأمر الخديو بتعيين المترجم نقيباً للأشراف فى ٦ شوال سنة ١٣١٢ . فاعتنى بضبط مدخولها وجدد من أوقافها ست دور بناها بجهة الحلمية ، وصار يصرف الاستحقاقات فى أوقاتها ، وسئل فى رياسة الخدمة بالمسجد الحسينى ، فقال : إن كانت النقابة تمنعنى من خدمة سيدنا الحسين لا أقبلها . فأبقى كما كان .

وأقام المترجم فى النقابة نحو ثمانى سنوات يجدد معالمها ، ويحيى ما درس منها ، حتى نقل منها شيخاً للأزهر . وكان سبب ذلك أن الخديو انحرف عن شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى ، وانتهى الأمر باستقالته يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ . وأراد الخديو إعادة الشيخ حسونة النواوى أو تنصيب الشيخ محمد بخيت المطيعى فلم يوافق النظار على ذلك ، فرشح الشيخ أحمد الرفاعى المالكى وأعلمه بذلك ، وكادت تتم له لولا عوارض اعترضت ، ثم سعى الشيخ على يوسف صاحب صحيفة المؤيد ومن أكبر المقربين من

الخديو للشيخ المهدى ابن العلامة محمد المهدى العباسى ، فرد عليه بأنه لا يصلح لخموله وعدم توليته أموراً قبل الآن . فأجاب بأنه وإن كان كذلك فهو من بيت علم وغنى ، تربى فى نعمة فلا تطمح نفسه لشىء مما فى الأيدى ، وتدربه على الأمور قريب مدرك . فرضى الخديو به ، ولكن النظار لم يوافقوه عليه الأمور نقمها عليه ناظر الحقانية مدة ما أقامه عضواً بالمجلس الحسبى ، فحار الخديو وحنق ، وطلب دفتر أسماء العلماء فوقع نظره على اسم المترجم فارتضاه وجنح إلى توليته ، ولم يكن خطر على بال أحد ، وساعد الشيخ على يوسف على ذلك ليتمكن من ردّ السيد محمد توفيق البكرى إلى النقابة ، فتم له الأمر ورضى به النظار ، وأعيد البكرى إلى النقابة مضافة إلى ما بيده من رياسة الطرق الصوفية ، وصدر الأمر فى ٢ ذى الحجة بإقالة الشيخ سليم من الأزهر وتنصيب المترجم — فلما ذهب لشكر الخديو كالعادة استصحب معه ولده الأصغر السيد محمود ، والتمس إقامته شيخاً على المسجد الحسينى بدله كما أقيم أخوه الأكبر السيد محمد قبله خطيباً له ، فقبل ملتمسه ، وأجيبت رغبته .

وكان الخديو فى ذلك الحين منحرفاً عن الشيخ محمد عبده مفتى مصر والعضو بمجلس إدارة الأزهر وصاحب الكلمة العليا فيه ، فكان يظن أن المترجم يوافقه فى معاكسة الشيخ ومعارضته وعرقلة مساعيه ، فأخطأ ظنه ، لأن المترجم مال للشيخ كل الميل ، ووافقه فى كل مشروع ، واتحد به واندرج فيه ، حتى لم يكن له من الرياسة غير رسومها ، والكلمة كلمة المفتى .

ولما سئل فى ذلك ، اعتذر بأن الرجل لا يريد غير الإصلاح ، فلا يرى وجهاً

لمعارضته . فكان ذلك سبباً لميل الخديو عنه — بعد إقباله عليه .

ولما اعتزم الإمام محمد عبده نفض يده من الأزهر ، رأى المترجم أن الأمور لا تجرى على مرغوبه ، فاستقال من الأزهر يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ هـ فأقيل يوم السبت ١٢ منه ، وأقيم بدله الشيخ عبد الرحمن الشربيني الشافعي ، واستقال أيضاً المفتى من مجلس الإدارة مرغماً .

وأقام المترجم بعد ذلك بداره التى بجهة المناصرة ، بعد أن رتب له الخديو خمسة وعشرين ديناراً مصرياً من الأوقاف الخيرية تصرف له كل شهر ، وظل مواظباً على تلاوة القرآن كعادته ، مقبلا على العبادة ، حتى ازداد به المرض سنة ١٣٢٣ هـ ، وتوفاه الله فى غروب يوم الجمعة الثالث من ذى القعدة من تلك السنة ، فشيعت جنازته بعد عصر يوم السبت ، وصلى عليه بالمسجد الحسينى وطيف به حول المقام كوصيته ، ثم دفن بقرافة المجاورين فى بستان العلماء . رحمه الله رحمة واسعة .

وله من المؤلفات رسالة اسمها : « الأنوار الحسينية ، على رسالة المسلسل الأميرية » ورسالة فيما يتعلق بليلة النصف من شعبان ، لولده السيد محمود تعليق عليها سماه : « عروس العرفان ، فى الحث على ترك البدع وشوائب النقصان ، على الرساله الببلاوية المتعلقة بليلة النصف من شعبان » .

حسونة النواوى

١٢٥٥ هـ — ١٣٤٣ هـ

ولد الشيخ حسونة بن عبدالله النواوى سنة ١٢٥٥هـ ، فى قرية «نواى» التابعة لملوى من أعمال أسيوط ، ولما ترعرع حضر إلى الأزهر ، وتلقى به العلم على شيوخ وقته . وكان حضوره الفقه الحنفى على الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والمعقول على الشيخ محمد الإنبابى ، والشيخ على بن خليل الأسيوطى .

ثم تولى التدريس فى الأزهر ، وأحيل عليه تدريس الفقه بدار العلوم ومدرسة الإدارة التى سميت بعد ذلك بمدرسة الحقوق[1] ، مع درس آخر بمسجد محمد على بالقلعة . فكان له من مجموع وظائف هذه الدروس ماحسن به حاله .

وألف فى أثناء ذلك كتابه : « سلم المسترشدين » فى الفقه الحنفى لتلاميذ مدرسة الإدارة . وقد سطع نجمه وتألق ، وأصبح علماً خفاقاً يهتدى به الحائرون .

وحينما بدأ إصلاح نظام الأزهر وإدخال بعض العلوم الحديثة فيه كالرياضيات وتقويم البلدان والتاريخ وغيرهم ، بسعى الإمام الشيخ محمد عبده ،

---

(١) كلية الحقوق الآن .

ثم تأليف مجلس لإدارته ، مع إبقاء الشيخ محمد الإنبابى شيخاً له ، واختير الشيخ حسونة رئيساً لهذا المجلس ، بعد أن رشحه لذلك بعض كبار رجال الحكومة ممن سبق لهم التلقى عليه بمدرسة الإدارة . فأخذ فى إدارة أمور الأزهر حتى انحصرت فيه كلياتها وجزئياتها . ولم يصبر الشيخ محمد الإنبابى على ذلك ، واعتلت صحته ، فاستقال فى ٢٥ ذى الحجة سنة ١٣١٢ هـ وأقيل فى ثانى المحرم ١٣١٣ هـ .

وكانت تولية الشيخ حسونة مكانه ضد رغبة العلماء الأزهريين ، إذ كانوا يرون أن فيهم من هم أكبر سناً ، وأكثر علماً ، وأحق بالرياسة عليهم منه ، ولأنه جاء مؤيداً لتدريس الحساب والهندسة والجبر وتقويم البلدان وما إليها فى الأزهر ، وكانوا ينفرون منها بدعوى أنها علوم مستحدثة ، وما هى إلا علوم قديمة اشتغل بها المسلمون وألفوا فيها . وكانت تدرس بالأزهر قبل انحطاطه . وإنما نفروا منها لبعد عهدهم بها ، ولظنهم أنها من علوم الأفرنج ، وأنها ما أدخلت فى الأزهر إلا للقضاء على العلوم الشرعية أو تقليل الرغبة فيها .

كذلك كان من أسباب ضيق الأزهريين بتولية الشيخ حسونة شيخاً للأزهر ، أنه تولى خلفاً للشيخ الإنبابى المشهود له بالعلم والفضل والتقوى بين الخاصة والعامة . وقد أشاع بعض الحاقدين أن الشيخ حسونة مطبوع على الشدة والجفاء فى مخاطبة الناس ومعاملتهم ، وأنه بعد التولية داخله شىء من الزهو والخيلاء ، كما أشاعوا أنه ممالئ للإنجليز على هدم مكانة الأزهر بإدخال العلوم الجديدة فيه .

وفى عهد توليته على الأزهر ، وقعت حادثة الوباء التى امتنع فيها الطلبة بإغراء بعض متهوريهم عن الإذعان لأوامر الحكومة ، واعتصموا بالأزهر ، وقاوموا رجال الشرطة ورموهم بالأحجار ، حتى أصيب محمد ماهر (باشا) محافظ القاهرة بحجر أدمى وجهه ، فأحيط بهم ، ورموا بالرصاص ، فجرح بعضهم ، ثم قبض على زعمائهم ، وحكم على بعضهم بالسجن ، وعلى البعض الآخر بالنفى ، وأغلق رواق الشوام لأن حركة التمرد بدأت منه .

وانتهز هذه الفرصة أعداء الشيخ النواوى وانتصروا للطلبة ، وأخذوا يرمون الشيخ بالضعف والتهاون عن الدفاع عن حرمة المسجد والمحاماة عن أهله ، فرد الله كيدهم فى نحورهم .

ولما توفى الشيخ محمد المهدى العباسى سنة ١٣١٥ هـ ، أضيف منصب الإفتاء الذى كان يشغله إلى الشيخ النواوى بجانب رياسة الأزهر .

واستمر الشيخ النواوى جامعاً للمنصبين ، حتى وقع الخلاف الكبير أواخر سنة ١٣١٦ هـ بشأن إصلاح المحاكم الشرعية ، وعرض على مجلس شورى القوانين اقتراح بندب قاضيين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية ليشاركا قضاة المحكمة الشرعية العليا فى الحكم ، فوقف الشيخ حسونة ضد ذلك الاقتراح ، وجرت مناقشة بين الشيخ ورئيس النظار مصطفى فهمى (باشا) انتهت بأن غادر الشيخ المجلس مغضباً محتجاً .

وأكبر الناس موقف الشيخ ، ولاسيما بعد أن سرى إلى الأذهان أن

الحكومة تريد هدم الشريعة بذلك المشروع ، ولكن النظار أحفظهم ما واجه به الشيخ رئيسهم ، وحرك ذلك ما كان فى صدورهم منه يوم أرادوا منع الحج احتجاجاً بالوباء ، واستفتوه ليجعلوا فتواه عصاً يتوكأون عليها كلما أرادوا منع الحج ، وظنوا أنه يوافقهم ، لكنه أخلف ظنهم ، وأفتى بعدم جواز المنع ، فلما كانت حادثته مع رئيس النظار ، شكوه إلى الخديو وطلبوا عزله .

وحاول الخديو حمل الشيخ على قبول الاقتراح بعد تعديله وتغيير ما يراه مخالفاً الشرع منه ، فأصر على الامتناع وقال : « إن المحكمة الشرعية العليا قائمة مقام المفتى فى أكثر أحكامها ، ومهما يكن من التغيير فى الاقتراح فإنه لا يخرجه عن مخالفته للشرع — لأن شرط تولية المفتى مفقود فى قضاة الاستئناف » .

وتألم الخديو من الشدة فى كلام الشيخ ، فمال لرأى نظاره فيه ، ثم أصدر أمره يوم السبت ٢٤ المحرم سنة ١٣١٧ هـ بعزل الشيخ عن رياسة الأزهر والإفتاء . وإقامة ابن عمه الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى شيخاً على الأزهر ، والشيخ محمد عبده المستشار بالاستئناف الأهلى مفتياً .

ولما أذيع الأمر كثرت وفود العلماء والوجهاء على دار المترجم . وانطلقت الألسنة بمدحه والثناء عليه ، وتعلقت به القلوب ، وأقبل الناس عليه أى إقبال . وتحققوا بطلان ما اتهمه به خصومه .

والحقيقة أن الشيخ لم يعهد عليه ما يشين دينه ولا دنياه . بل عرف بالعفة وعلو الهمة ونقاء اليد . ولولا جفاء كان يبدو بعض الأحيان فى منطقه ، وشدة فيه يراها بعض الناس غلظة ، ويعدها البعض شهامة ، لحفظ ناموس العلم ، خصوصاً مع الكبراء الذين أفسدهم تملق علماء السوء ، وحملهم على الاستهانة بهذه الطائفة .

ولم يزل المترجم معتكفاً فى داره ، مقبلا على شأنه ، حتى انتقل إلى دار ابتناها بجهة القبة . ولم يقم ابن عمه فى الأزهر طويلا ، بل توفى فجأة بعد نحو شهر من ولايته سنة ١٣١٧ هـ . فولى على الأزهر الشيخ سليم مطر البشرى المالكى ، ثم استقال فأقيل يوم الأحد ٢ ذى الحجة سنة ١٣٢٠ هـ . وأراد الخديو إعادة المترجم أو تولية الشيخ محمد بخيت ، فلم يوافق النظار ، ثم تولى على الأزهر الشيخ على بن محمد البيلاوى المالكى نقيب الأشراف ، واستقال يوم الثلاثاء ٩ المحرم سنة ١٣٢٣ هـ ، فأقيل يوم السبت ١٢ منه . وفى اليوم التالى عين الشيخ عبد الرحمن الشربينى الشافعى شيخاً للأزهر ، ثم استقال فأقيل يوم الأربعاء ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٢٤ هـ ورتب له ١٥ دينارا مصرياً فى الشهر من الأوقاف الخيرية ليكمل مرتبه ٢٥ ديناراً . وفى اليوم نفسه أعيد الشيخ حسونة النواوى شيخاً على الأزهر ، ولكنه لم يمكث فى المنصب طويلا ، بسبب اختلال الأحوال فى الأزهر ، فاستقال سنة ١٣٢٧ هـ . وأعيد إلى الأزهر الشيخ سليم البشرى ، ولزم المترجم داره بالقبة يزوره محبوه ويزورهم حتى آخر حياته . وكان خلال توليته الأولى قد عين عضواً دائماً

غير قابل للعزل بمجلس شورى القوانين ، ولهذا بقى فى المجلس بعد عزله من الأزهر والإفتاء ، حتى ألغى المجلس واستعيض عنه بالجمعية التشريعية سنة ١٣٣٢ هـ

وقد أصيب الشيخ فى أواخر أيامه بأمراض ووهن فى القوى وضعف فى النظر ، وانتقل إلى رحمة مولاه صباح يوم الأحد ٢٤ من شوال سنة ١٣٤٣ هـ ودفن بقرافة المجاورين .

عبد الله نديم

١٢٦١ هـ - ١٣١٤ هـ

هو : عبد الله نديم أفندى بن مصباح بن إبراهيم ، الأديب الألمعى ، والخطيب المفوّه ، نادرة عصره ، وأعجوبة دهره .

ولد أبوه ببلدة « الطيبة » بالشرقية فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٤ هـ ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية ، فكان فى مبتدأ أمره نجاراً للسفن بدار الصناعة ، ثم اتخذ له مخبزاً لصنع الخبز ، ومات بالقاهرة فى ٤ رجب سنة ١٣١٠ هـ .

وولد المترجم بالثغر المذكور فى عاشر ذى الحجة سنة ١٢٦١هـ ونشأ فى قلة من العيش ، ومالت نفسه إلى الأدب فاشتغل به واسترشد من أهله ، وطالع كتبه ، وحضر دروس الشيوخ بمسجد الشيخ إبراهيم . وكان قليل الاعتناء بالطلب ، غير مواظب على الدرس ، إلا أن الله وهبه ملكة عجيبة وذكاء مفرطاً ، فبرع فى الفنون الأدبية ، وكتب وترسل ونظم الشعر والزجل ، وطارح الإخوان ، وناظر الأقران . ثم بدا له أن يتعلم صناعة للكسب ، فتعلم فن الإشارات البرقية ، واستخدم فى مكتب البرق بينها العسل ، ثم نقل إلى مكتب القصر العالى بالقاهرة ، وبقى به مدة عرف فيها كثيراً من أدباء القاهرة وشعرائها ، مثل : محمود سامى البارودى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، والشيخ أحمد وهبى . ثم غضب عليه « خليل أغا » أغا القصر ، وكان فى سطوة لم يبلغها

كافور الأخشيدى ، فأمر بضربه وفصله ، فضاقت به الحيل ، ورقت حاله ، حتى توصل إلى الشيخ أبى سعدة محمدة « بداوى » فى الدقهلية ، وأقام عنده يقرىء أولاده ، ثم تشاحنا وافترقا على بغضاء . واتصل بالسيد محمود الغرقاوى ، أحد أعيان التجار بالمنصورة ، فأحسن منزله ، وفتح له حانوتا لبيع المناديل وما أشبهها . فكانت نهاية أمره أن بدد المكسب ورأس المال ، وجعل يجوب البلاد وافداً على أكابرها ، فيكرومون وفادته ويهشون لمقدمه ، لما رزق من طلاقة اللسان ، وخفة الروح ، وسرعة الخاطر فى النظم والنثر ، فيطوف مايطوف ، ثم يأوى إلى دار الغرقاوى بالمنصورة .

ثم عاد إلى طنطا سنة ١٢٩٣ هـ واتصل بشاهين (باشا) كنج مفتش الوجه البحرى إذ ذاك . ولاتصاله به سبب لا بأس من ذكره ، وهو : أن الباشا المذكور كان بينه وبين الشيخ محمد الجندى أحد العلماء بالمسجد الأحمدى محبة وتزاور . وكان الشيخ يعرف غلاما حلاقا حسن الصوت ، فأمره مرة أن يغنى بحضرة الباشا ، فغنى بقول المترجم :

سلوهُ عن الأرواح فهى ملاعبه ... وكفوا إذا سلَّ المهند حاجبهْ

وعودوا إذا نامت أراقم شعره ... وولوا إذا دبت إليكم عقاربهْ

ولا تذكروا الأشباح بالله عنده ... فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه؟

أراه بعينى والدموع تكاتبه ... ويحجب عنى والفؤاد يراقبهْ

إلى أن قال :

ولو أن طرفى أرسل الدمع مرة سفيراً لقلبى ما توالت كتائبه

وكان كثيرا ما يتغنى بها ، فطرب الباشا طرباً شديداً ، واستظرف قائل الأبيات ، وتمنى رؤيته ، فأرسلوا له بالحضور ، فلما حضر إلى طنطا [1] ذواجهه ، استقبح صورته ، إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه ، ومال إليه ، فاتخذه نديماً لايمل ، ورفيقاً حيث حل . فلما استقرت به النوى وملأ يده من الباشا ، استعداه على أبى سعده الذى كان يقرىء أطفاله ، وادعى أنه أخر له ثلاثين ديناراً من أجرة التعليم ، فأمر الباشا بإشخاصه إلى طنطا . وألزمه أن يدفع للمترجم مائة . فدفعها عن يد وهو صاغر .

وكان مجلس شاهين باشا محط رحال الأدباء ، ومنتجع الشعراء والندماء ، لايخلو من مطارحات أدبيه ، ومساجلات شعرية ، وللمترجم بينهم المقام الأعلى ، والقدح المعلى . وحسبك ما وقع له من طائفة (الأدباتية) ، وهم مشهورون بالقطر المصرى ـ يستجدون الناس فى الطرق بإنشاد الأزجال والضرب على الطبل ، وأغلب أزجالهم مرتجلة فى مقتضى الحال . فكان للمترجم معهم يوم مشهود ، ذكره فى مجلة الأستاذ ، ومنها نقلناه . قال :

« اتفق لى أنى كنت بمولد سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه سنة ١٢٩٤ هجرية ، وكان معى السيد على أبو النصر ، والشيخ رمضان حلاوة ،

---

(١) هو الاسم الأصيل لمدينة « طنطا »

والسيد محمد قاسم ، والشيخ أحمد أبو الفرج الدمنهورى . فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب (١) وقف يناظر آخر . فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما لفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام ، فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلىّ ، فقال أحدهما يخاطبنى :

انعم بقرشك ياجندى والا اكنا امال يا أفندى
إلا انا وحياتك عندى بقى لى شهرين طول جوعان

فقلت على سبيل المزح معه :

أما الفلوس أنا مديشى وانت تقول لى مامشيشى
يطلع علىّ حشيشى أقوم أملص لك لودان

ثم أخذنا نتبادل الكلام نحو ساعة ، حتى غلبا عندما فرغ محفوظهما ، فلما قمنا وتوجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا ، وكنا نازلين عنده جميعاً ، أخبره السيد على أبو النصر بما كان منى مع الأديبين ، فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدباتيه وطلب منه أن يستحضر أمهر من عنده ، ووعده أن يعطيهم ألف قرش إن غلبونى ، فان غلبتهم ضرب كل واحد منهم عشرين كرباجاً . فرضى بذلك . واستحضر الشيخ داود ، والحاج إسماعيل ، الشهيرين بعمل الزجل وإنشاده ارتجالا فى أى غرض ، واستحضر معهما ستة من أشهر الحفظة المقتدرين على الارتجال أيضاً ، وعقد الباشا لذلك مجلساً أمام بيته

(١) يقصد أنه واحد من طائفة « الأدباتية »

بطنطا ، وأجلسنى بينه وبين المرحوم جعفر (باشا) مظهر . وقد وقف الناس ألوفا ، والعساكر تدفعهم عنا ، ثم ابتدأ الشيخ فقال :

أول كلامى حمد الله ثم الصلاة على الهادى
ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسيادى

فقلت :

أنا أريد أحمد ربى بعد الصلاة على المختار
وان كنت تطمع فى أدبى أسمعك حسن الأشعار

فقال :

دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعكه
ندخل على اسيادنا بسرور ونغنم الخير والبركه

فقلت :

هيا احتكم فى البحر وشوف فن النديم ولا فنك
دلوقت تسمع يا متحوف أحسن أدب وحياة دقنك

فقال : هات مدح فى الحضرة على قد :

تعمل عمايلك يامنصان يا ابو الشفيفه العسليه
ياصاحب الحجل الرنان ودى الأمور الحيلية

ماذا تريد من دى الولهـــان　　قـــل لى واسعـــف
أحسن أنا من خمـر الحان　　قصـــــــــدى أرشـف
وإن كنت تسمح يا ابو الخير　　يبـقى الوصال (الدوا) ليه

فقلت :

المجلس العـالى محمـــود　　فيـــه الأماره والأعيان
واليـوم دايـوم بابن مشهود　　خلعت عليه حـــلة إحسان
شاهـين باشا فيـه موجـود　　حظـه أزهـــــــــــر
أما المدير هـــذا المسعود　　جعفر مظهـــــــــــر
فإنه فى النـــــاس معدود　　من ضمن أرباب العرفان

فقال :

القصـد منـــك يا نديمنـا　　تعمل زجـــل هيـله بيـله
إلا انت دلوقت غـــريمنـا　　قصـدى احـــدفك بالقلقيله

فقلت :

انت صغـار لسـه نـونـو　　وفى الزجـل منتش مجـدع
اتبـــع نديم تلقى فنـونـو　　تـأتيـك من المعنى الأبدع

وبعد أن دار الكلام بينى وبينه فى كثير من هذا الوزن ، قام الشيخ داود وقال :

قصدى اقول كلام — يحكى لضمات الزهور — هات اشجنا بنظام من فن « كان وكان »

ادخل بنا لمعان — كالبكر من خلف الستور — فى قلب متحلى
فى النظم بالإتقان

فقلت :

اسمع كلام نديم — من طيه كل السرور — واعقل نصيحة خبير
يدعوك للعرفان

لاتستخف بخصم — لو كان من أوهى الطيور — واصفح فكل صفوح
يعلو على الأعيان

واخش اللئيم دواما — فاللؤم داع للشرور — واحفظ مودة حر
فى عهده ماخان

هذى نصيحة حر — إن قلت زانت للنحور — والفكر فكر ذكى
لايعرف النسيان

فأعرض عن « كان وكان » عجزاً منه . وقال : هات فخرا على قدّ :

يا صبا نجدٍ ورامه هجت للمشتاقِ وجدا
كل صب فى غرامه ما اشتكى فى الليل سهدا
والهوى أحرق ضرامه كل أحشائى وقلبى

فقلت :

فخر مثلى فى بيانه والغبى يفخر بماله

والأدب أحسن صفاتى فالذكى حسنه كماله
كل قول المرء يفنى غير محمود المآثر

(دور)

قد كان لى سعد السعود خدام لما التقينا فى الطريق
وقلت بالحاجب أروح قدام وانت ورايا ياصديق
فصرت أنظر للقوام بالقام وعادل القد الرشيق
حتى ملكت الروح وارواحه لو يرجع اليوم ينظر

(دور)

قال المدلع عاشقى : ما الحال ؟ جفنى جرح منك الفؤاد
كم من شجى مثلك سباه الحال حتى غدا خصم الرقاد
قلت ارحموا من فى التصابى مال عن كل أبواب الرشاد
قال إن ترم منى الوصال وصفاه هات اليمين الأكبر

ثم طلبت منه أن يأتى باليمين من هذا الوزن ، فوقف ، فقصدت الحاج إسماعيل ، فوقف . فطلبت من الستة ، فوقفوا ، فقال المرحوم شاهين باشا : نحسبها لك واحدة .

ثم قال الشيخ : هات غزلا بمعنى بديع على قدّ :

أهيف رشقنى بقوام — مثل المران — والوجد عذبنى بناره

فقلت له : أقول تحميلة ، وتقولون أخرى من جنسها . فقال : هات . فقلت :

يا اهل الصبابه ياعشاق — سلوا المشتاق — فالعشق ماله غير أهله

فوقف الجميع ، ولم يستطع واحد منهم الدخول معى فى هذا المضيق . فقلت ومشيت إلى آخر الأدوار الآتية :

أشكو إليكم أحزانى بل هجرانى من أهيف صادنى نبله
أهيف بنظره فى خده خدنى عبده وجت سقامى تشهد له
وادمعى نزلت تجرى تنظر صدرى رأت فؤادى بيرقص له
قالت لو اتلفت عيونى قال : سيبونى سيد الملاح يعرف شغله
ما يعرف العشق الأجلاف يا اهل الإنصاف ما للمذول يكثر عذله
عاقل رأى مجنون يشرب حتى يطرب فراح شعوره مع عقله

إلى أن قلت :

لما رآه سلب الألباب خاف الأسباب وراح يعضعض فى نعله
وصرت وحدى متهنى أفضل اغنى للحب إن شخشخ حجله
أرعى النجوم والنار تكوى قلبى المشوى والوجد كتفنى بحبله
قد بعت روحى للفتان من غير أثمان وبعت ملكى من أجله
كيف الخلاص والقلب كسير والصب أسير والجفن يجرحنى بنصله

ثم قلت :

يقول لى يا مسكين مالك بين حـــالك عسى يكون عندى حله
فقلت ياسيدى عبدك من نار خدك حرق اللهيب جسمه كله
أخدت حبيب قلبي النخوه بعـد القسوة وجـــه يغـازلى بدله
خطر ولـكن فى قلبي بهجـــة لبى وجاد لمسكينو بوصله
من فرحتى هرولت ابـكى من غيرما اشكى والدمع من كترو بلّه
حـركت قلبه للرحمـه من دى الفحمه فجـاد بياسمينو وفـله
فقلت : أحييت الفـانى يـا إنسـانى الله يجازيك من فضله
وكل ما يرجـو العاشق غـير الفاسـق والسر لا يحسن نقله

وإلى هنا صفق الباشا والحاضرون ، ثم عدنا للزجل المعتاد بما يطول ذكره ، فإن الشيخ رمضان كتب من زجل هذا المجلس خمسة كراريس ، وكله محفوظ عندنا لم يضع منه شيء موقد استمرت المناظرة ثلاث ساعات ».

*
* *

ولقد سألت بعض من حضر هذا المجلس عما كتبه المترجم ، فأنكره . وأخبرنى أنه تعالى فيما كتب ، وذكر أناساً لم يكونوا حاضريه . والله تعالى أعلم .

ثم اتصل المترجم بالتونجى (بك) فجعله وكيلا على ضياعه ، ثم لحق بالإسكندرية مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، وكان منه ما سنقصه عليك .

تلك خلاصة ترجمته فى أول أمره ، ومبتدأ خبره . وكان القطر المصرى فى أثناء ذلك فى اضطراب ، وهرج ومرج ، من اختلال الأحوال ، وفساد الحكام ، واعتلاء الإفرنج على الأهلين ، وقد سئم الناس حكم الخديو إسماعيل وتمنوا زوال دولته . . .

فلما وفد المترجم على الثغر رأى لفيفاً من الشباب ألفوا جمعية « مصر الفتاة » يتآمرون فيها سراً ، خوفاً من بطش الخديو . فعرف منهم البعض ، واشتغل بالكتابة فى صحف الأخبار ، فأعجب الكتاب بمقالاته ، واقتدوا به فى تحسين الإنشاء ، وكان سقيماً منحطا فى ذلك العهد . ثم سعى مع جمع من الأدباء ، فألفوا جمعية سموها « الجمعية الخيرية الإسلامية » سنة ١٢٩٦ هـ آخر سنى إسماعيل فى الحكم ، وجعلوه مدير مدرستها . ثم عزل الخديو وتولى ابنه توفيق . ففرح الناس وظنوا انفراج الأزمة — وجد المترجم واجتهد فى إنجاح مسعاه فى الجمعية ، حتى حمل الخديو على زيارة مدرستها ، فزارها يوم امتحان تلاميذها ، وجعلها تحت رعاية ولى عهده عباس . وفتحت لهم أبواب المدرسة البحرية ليدرسوا بها ، وقررت الحكومة مائتين وخمسين ديناراً فى السنة مساعدة لهم .

وطفق المترجم يؤلف القلوب ، ويحض الأهلين على الاتحاد بالمقالات والخطب ، ينفثها قلمه ولسانه ، وألف قصة سماها : « الوطن وطالع التوفيق » وأخرى سماها : « العرب » شرح فيهما ما كانت عليه حالة القطر وما طرأ عليه ، ثم مثلهما هو وتلاميذه بأحد ملاعب الثغر بحضور الخديو ، فكان

لها تأثير كبير فى النفوس، واشتهر المترجم، وعلا كعبه، ولهج الناس بذكره .

ثم طرأ فساد على الجمعية نسبوه إليه فانفصل منها . وكان قد شرع فى إنشاء صحيفة سماها : « التنكيت والتبكيت » مزج فيها الهزل بالجد . وظهر أول عدد منها فى ٨ رجب سنة ١٢٩٨ هـ ، وظهر فى أثناء ذلك وميض الثورة العرابية من خلل الرماد ، فوافقت هوى فى نفس المترجم، وضمه قادتها إليهم، وشدوا أزرهم به ، فملأ صحيفته بمحامدهم ، ودعا إلى القيام بناصرهم ، وخطب الخطب المهيجة ، ونظم القصائد الحماسية ، وندب الوطن ورثاه ، وحض على الاجتماع والتكاتف ونبذ أضاليل الأفرنج ، فأثرت قالته فى النفوس، وأشربتها القلوب .

وانتسب المترجم إلى الإمام الحسن السبط ، رضى الله عنه. وإن كان بعض من عرفوه ينكرونها . ثم أوقف صحيفته بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عدداً ، آخرها تاريخه ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ هـ وكانت أسبوعية تظهر يوم الأحد ، وانتقل إلى القاهرة وهى جذوة من نار ، وغير اسم صحيفته بأمر من عرابى كبير الثوار ، فسماها : « الطائف » تيمناً باسم بلدة بالحجاز مشهورة ، وتفاؤلا بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب « أحمد فارس » . واسترسل المترجم مع رجال الثورة حتى صار جُذَيلها المحكك ، وعُذَيقها المرجب ، ولقبوه بخطيب الحزب الوطنى ، وقام سراة القطر وأعيانه يعقدون المجتمعات ويولمون الولائم للعرابيين ، ويدعون المترجم للخطابة ، وكانت له بها المواقف المشهودة، والأيام المعدودة ، حتى قامت الحرب بالإسكندرية بين الانكليز والمصريين يوم

الثلاثاء ٢٥ شعبان ١٢٩٩ هـ فسافر إليها مع جماعة من رؤساء الجند وبات بها ليلة ، ولحق بعرابى وقد رجع إلى كفر الدوار ، ثم انتقل معه إلى التل الكبير وهو ينشىء صحيفة « الطائف » بالمعسكر ، فيضمنها أخبار الانتصار ، ويحشوها بما فيه تهدئة للأفكار ، حتى وقعت الوقعة الكبرى على المصريين بالتل الكبير ، فجاء مع عرابى وعلى الروبى إلى القاهرة يوم الأربعاء ٢٩ شوال من السنة المذكورة ، واتفقوا على إرساله إلى الإسكندرية بكتاب يطلبون به مطلبا من الخديو ، فسافر به يوم الخميس ، ولما وصل إلى كفر الدوار بلغه القبض على زعماء الثورة ودخول الإنكليز القاهرة . فعاد إليها ليلا ، وبقى فى داره بجهة العشماوى إلى الصباح ، وخرج مع والده وخادمه فركبوا عجلة وقصدوا بها بولاق ، ورآه شاهين فؤاد المفتش بالمصرف العقارى وهو من مماليك القصر السابقين ، فظنه غير مطلوب ، ولولا ذلك لقبض عليه . وودعه أبوه عند وصوله إلى بولاق واختفى مع خادمه تسعة أعوام لايهتدى لمكانه ، حتى أعيا الحكومة أمره ، فجعلت ألف دينار لمن يرشد إليه ، وبثت عليه العيون فلم يظفروا بطائل . وأعيتهم الحيل ، فحكم عليه بالنفى من القطر المصرى مدة حياته ، ويئس أصحابه من وجوده ، وأشيع القبض عليه وخنقه أوموته حتف أنفه أو هربه إلى بلاد الإفرنج ، ولاغرو إذا عد اختفاؤه من الأمور الغريبة فأمره غريب من أوله — وكان حين ودع أباه ببولاق قصد دار صديق له يدعى الشيخ مصطفى فأقام بها أياما ، ثم غير زيه فلبس ثوبا من الصوف الأحمر (زعبوطاً) واعتم بعمامة حمراء وسدل على عينيه منديلا ، وأخفى شاربه ، وأعفى لحيته ، فتغيرت هيئته ،

ونزل مع خادمه فى سفينة قاصدة «بنها» ومنها إلى «منية الغرق» بقرب طاخا ، وقصد الشيخ شحاته القصبى من مشايخ الطريقة الصاوية كان أخذ عليه العهد ، وكان مشهوراً بالصلاح والتقوى ، فلم يعرفه لتغير شكله . فجلس هنيهة حتى انعرف من فى المجلس ، فعرّفه حاله ، وأقام عنده ثلاثا ، ثم أشار عليه الشيخ بالانتقال معتذراً بكثرة الواردين ، فتحول إلى دار أحد الدراويش الموثوق بهم ، فآواه شهراً ثم قصد بلدة أخرى ، وطوحت به الطوائح ولقى الأهوال .

وحدث أنه نزل مرة عند قوم فأخفوه فى قاعة مظلمة يتوصل إليها من سرداب طويل شديد الظلمة ، ترشح أرضها بالماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك البلدة ، وكان لا يتمكن من الكتابة والمطالعة إلا على مصباح صغير من زيت الحجر وهو الغاز أو الجاز كثير الدخان ، فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة أشهر . ولما خرج منه كاد لا يبصر الطريق لما غشى عينيه . وكان كلما حل أو ارتحل يغير اسمه وحليته ، فتارة يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض ، ويخضبها بالحناء أخرى ، وغير اسم خادمه حسين فسماه صالحاً . وظنه الناس شيخاً من الصلحاء ، حتى لقى مرة بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه . ثم ألقت به يد الأقدار إلى بلدة « العتوة القبلية » فى الغربية ، فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشرى فأكرم مثواه ، وأقام فى داره ثلاث سنوات ونيفا ، تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به أحد ، وزوج خادمه حسينا بأخت زوجته . ثم مات فى أثنائها رب الدار ، وكان شهماً ذا مروءة كبيرة ، وله امرأة مثله شهامة ومروءة ، فاستحضرت أكبر

أولادها، وأعلمته أن ضيفهم المختفى عندهم هو «عبد الله نديم» طريد الحكومة، وسألته : هل يطمع فى الجُعْل ويسلمه ؟ أو يكون كأبيه فى حفظ الجار وحماية الذمار ؟ ! فاهتز الولد لقولها، وأبى إلا أن يقتدى بأبيه فى الكرم . ولعمرى إن ما آتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لمما يندر مثله فى هذا الزمن .

وتنقل من بلدة إلى أخرى، وماتت زوجته، فذهب إلى القرشية نزيلا عند أحمد (باشا) المنشاوى، فكان يجتمع به صديقه القديم الأديب محمد أفندى التميمى وغيره، وتزوج هناك ببنت مصطفى منى من أهل المحلة الكبرى، إلا أنه لم يحمد المقام، فانتقل إلى دار التميمى فى شهر ذى العقدة سنة ١٣٠٥ هـ فأقام بها شهراً، ثم سافر إلى « الدلجمون » فى البحيرة فلم يمكث بها غير أسبوع . وعاد إلى الغربية ، وقصد « البكاتوش » فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ إبراهيم حرفوش، وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جوده، وكان رجلا قوى الجنان، لا يبالى بظلام الليل أنّى سار فيه . فصار يصحب المترجم إذا أراد الانتقال فى الليل الحالك، ويتجشم معه أضيق المسالك . وجعل المترجم إقامته بين « البكاتوش » و « شباس الشهداء » ، ينزل فيها عند « محمد معبد » الحلاق ، فيلاقى عنده من الكرم والمروءة مالقيه إبراهيم بن المهدى عند ذلك الحلاق المشهور مدة اختفائه من المأمون . ولم يزل كذلك حتى انتقل عند صديقه وصديقنا الأديب الكامل الشاعر الناثر محمد شكرى المكى كاتب المركز بدسوق الذى أخبرنى قائلا: بينما أنا بالمركز يوماً إذ دخل علىّ الشيخ إبراهيم حرفوش عمدة البكاتوش ،

فسلم وجلس، ولمحت منه أنه يريد أن يسر إلىّ أمراً، فترقب خلوّ المكان، ثم أخبرنى أن شخصاً عنده مشتاق إلىّ، وهو صديق لى لم يرنى منذ ثمانى سنوات فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرنى به. ثم صار يتردد علىّ بعد ذلك يذاكرنى فى هذا الصديق ولا يبوح باسمه، حتى وثق منى، فأخبرنى أنه مختف واسمه «عبد الله». فقلت: لعله عبد الله نديم؟ فقال: نعم. فكتبت له بيتين من نظمى، وسألته توصيلهما إليه، وهما:

ولقد نذرت إذا لقيتك سالماً ... لأقبلنّ مواطىءَ الأقدام

ولأثنينّ على محياكَ الثرى ... حثت على التحرير والإقدام

فذهب بهما، وعاد لى بعد يومين بقصيدة من نظم المترجم بخطه عدتها مائة بيت من البحر والقافية، يتشوّق فيها إلىّ ويذكر ما لاقاه أيام الثورة والاختفاء، ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت، وكأنه نسى نفسه وما هو فيه من الضيق. فكتبت له أبياتاً أطلب الاجتماع به. وبعد أسبوع حضر لى إبراهيم حرفوش ومعه ورقة بخط المترجم يطلبنى فيها إليه يوم الجمعة بشباس الشهداء، فذهبت فى الميعاد، فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرنى، فذهب بى إلى داره وهى دار صغيرة على تل، وقد أنزلوا المترجم فى مكان عالٍ لا سلم له، فصعدت إليه على سلم من الخشب رفعوه بعد صعودى، فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلا، وأدركتنى عليه شفقة، فقبلت يده، ثم جلسنا نتحادث فى القديم والحديث، وأطلعنى على كتبه التى ألفها

مدة الاختفاء ، منها : بديعية له شرحها شرحاً لطيفاً لم يكمله ، وثلاثة دواوين من نظمه ، وجزء من « كان ويكون » ثم فارقته وقت العصر .

* * *

وانتقل المترجم عند صديقه المذكور بزوجته وكتبه ، مدعياً أنه : ابن عمه أتاه زائراً من الحجاز ، وسمى نفسه علياً اليمنى ، فمكث نحو ستة أشهر . ثم انتقل بمفرده إلى شباس الشهداء ، ولحقت به زوجته بعد عشرين يوما . ثم أعادها بعد خمسة وعشرين يوماً إلى دار شكرى (أفندى) بدسوق ، ولحقها فمكثا ستة أشهر أخرى ، ثم عاد إلى البكاتوش عند أحمد جوده ، وكانت زوجته هذه تسيء إليه وتغاضبه ، فجمعت عليه مع ضيق الاختفاء سوء معاشرة الأهل ، حتى ضاق ذرعه منها مرة ، وهم بإظهار نفسه للحكومة ، ثم تراجع وأصلح أمره معها ، ولكنه مرة على فمه فكادت تسقط ثنيتيه من الفك الأعلى ، فربطهما بخيط من الحرير . وكان خادمه حسين مختفياً مع زوجته ببلدة الجميزة التابعة لمركز السنطة ، فطلبت زوجة المترجم الذهاب إليه فأذن لها ، فلما استقرت عنده تشاحنت مع زوجته ، وكاد الأمر ينفضح ، فأسرع الخادم لسيده بالبكاتوش مستغيثاً ، فانتقل المترجم إلى الجميزة وأصلح بينهما ، وبقى هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام ، وعرفه عمدة البلدة فتغاضى عنه ، وكتم أمره ، فكان يخرج للتنزه على غير عادته فى الاختفاء ، فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة ، وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به .

وكان يتردد على البلدة رجل يقال له « حسن الفرارجى » كان منتظماً

فى العسكر ، ثم استخدم جاسوساً سرياً ، فلما بصر بالمترجم أنكر حاله لما رآه عليه من سيما الاختفاء ، ورجح أنه « عبد الله نديم » ، فكتب إلى الديوان الخديوى ينبئهم بوجود رجل من العرابيين مختف بالجيزة ، وأسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره ، فأعطوه ورقة بحليته ، فلما تحقق منه أخبرهم به ، فأمروا بالقبض عليه ، وحضر من طنطا محمد أفندى فريد وكيل الحكدار ومعه نفرٌ من الشرطة متروا ملابسهم بثياب أخرى ، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين ، وصعد وكيل الحكدار مع الآخرين على تل مشرف على أفنية الدور ، وأحس المترجم بتلك الحركة ، فأوجس فى نفسه خيفة ، وأراد الانتقال إلى دار أخرى ، فأخذ عَيْبَته على كتفه وصعد على سطح المكان ، فأبصره الذين على التل ، فصاحوا وصوبوا بنادقهم عليه ، وأمروه بالنزول فنزل ، ثم أحاطوا بالدار ، وطرقوا الباب طرقاً عنيفاً ، وأيقن المترجم أنه مأخوذ لامحالة ، ففتحه لهم ، وواجههم متجلداً ، فسأله محمد أفندى فريد عن اسمه فقال له : « سبحان الله ! أتجهل اسمى وأنت مأمور بالقبض علىّ ، أنا عبد الله نديم ، ذو الذنب العظيم ، سلمت أمرى لله » . فقبضوا عليه هو وخادمه ، وأعماهم الله عن كتبه وأوراقه ، ولولا ذلك لأصابه شرٌ عظيم بسبب أهاجيه فى الخديو وأسرته ، وكان القبض عليه فى ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩ ، ولم ينل الواشى به شيئاً من الجُعل لفوات الأجل المضروب للمكافأة . ثم استاقوهما إلى المركز ، وسألوه عمن اختفى عندهم ، فلم يقر بأحد ، وسألوا خادمه وضربوه ، فأقر بالبعض ، ونقلوهما إلى طنطا ، فسجنا

بعض أيام ، ووكيل النيابة يوالى سؤالها ، وانتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعن آواه ، ونفيه خارج القطر ، فاختار يافا ثغر القدس الشريف ، ووصل إليها فى غروب يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول ، ونزل عند السيد على (أفندى) أبى المواهب مفتيها ، ولما دخل داره وعرفه بنفسه ، قام واعتنقه ، وضحك وبكى . فأقام عنده شهراً ، ثم اتخذ له داراً ، وعرفه أعيانها وفضلاؤها ، وأكرموه وواسوه ، جزاهم الله خيراً . ثم رحل رحلته إلى نابلس وسبطيه وقلقيلا وغيرها من البلاد الفلسطينية . واجتمع بطائفة السامرة واطلع على كتبهم ومعتقداتهم كما رأيته بخطه فى كتاب أرسله لأحد أصدقائه فى مستهل رمضان من تلك السنة ، ولم يزل مقيماً ببيافا حتى مات الخديو توفيق ، وتولى ولده عباس فى جمادى الثانية ، فعفا عنه وأباح له العود إلى مصر ، قال فى آخر ذلك الكتاب : «عزمنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعالى ، فإن موسم سيدنا موسى الكليم يُعمل فى نصف شوال ، ولا أحضر حتى أزوره مرة ثانية ، فإنه صاحب الأمر بالعفو عنى ، وإن كان الظاهر خلافه ، وذلك أنى عند دخولى حضرته الشريفة أنشدته فى الحال :

رجوتك يا كليم الله حاجا ... أرجيها وقد حققت فضلك
فقل لى مثلما لك قَبلُ أوحى ... إلهُ الخلق : قد أوتيت سؤلك

فرأيته ليلا يقول لى : قم رَوِّح . ثلاثا ».

* * *

ولما عاد إلى مصر استوطن القاهرة ، وأنشأ مجلة « الأستاذ » فى شهر صفر سنة ١٣١٠ ، فبرزت موشحة ببديع مقالاته ، وغرر أزجاله وموشحاته .

وبدت الوحشة فى أثناء ذلك بين الخديو والإنكليز ، وكان ما كان من عزل صنيعتهم مصطفى فهمى كبير الوزراء ، ومعاكستهم فيما يريدون . فقام المترجم يستنهض الهمم ، ويحض على مؤازرة الخديو ونبذ طاعة سواه ، وكتب فى ذلك المقالات الطويلة « بالأستاذ » ، حتى أحفظ الإنكليز ، وخشوا من اتساع الخرق لمكانته السابقة فى النفوس ، وانتهزها حساده فرصة فسعوا بما سعوا ، ولفقوا له ما لفقوا ، فأوقفوا مجلته فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، وأعادوه إلى يافا منفيا ، بعد أن أعطوه أربعمائة دينار ، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر ، واشترطوا ألا يكتب بشأن مصر كلمة ، ولم ينفعه الخديو لقصر يده .

فلما استقر المترجم بيافا لم يسلم من السعاية به لدى السلطان ، فأمر بإبعاده ، فعاد إلى إسكندرية متحيراً ، وقد لفظته البلاد لفظ النواة ، فسعى له الغازى مختار (باشا) ومساعده حتى قبله السلطان عبد الحميد بدار السلطنة ، واستخدمه فى ديوان المعارف ، ووظف له خمسة وأربعين ديناراً مجيديا فى الشهر ، فأمضى بها بقية أيامه شريداً عن وطنه ، بعيداً عن أهله وخلانه ، حتى اشتدت عليه علة السل ، فاتى حمامه فى الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ رحمه الله .

ودفن بمقبرة يحيى أفندى فى بشكطاش ، وضاعت مؤلفاته ودواوينه ، ولم يظهر منها إلا جزء من « كان ويكون » كان يطبعه ذيلا للأستاذ ، وكتاب آخر نسبوه إليه اسمه « المسامير » محشو بالهجو القبيح فى الشيخ أبى الهدى الصيادى نزيل دار السلطنة .

* * *

ومن تأمل بعين الاتعاظ فى تقلب الأحوال بالمترجم وما ذاقه من حلو الزمان ومره ، وقاساه مدة الاختفاء ، ثم النفى حتى مات غريباً طريداً ، حق له العجب ، وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه .

ونشأ المترجم فقيراً كما قدمنا ، وعاش فى قلة ، فإن أصاب شيئاً بدّده بالإسراف . وكان فى أول أمره يرتدى الملابس الأفرنجية المعلومة . فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقفطان ، واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف . وكان شهى الحديث حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة فى آخر إقامته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا . وقد انتخب أخوه عبد الفتاح أفندى جملة صالحة من مقالاته ، جمعها فى كتاب سماه : « سلافة النديم » فارجع إليه إن شئت .

ومن مختار شعره قوله من قصيدة لم ننشر منها إلا على هذا القدر :

سيوفُ الثنا تصدا ومِقولى الغمدُ
ومن سارَ فى نصرى تكفله الحمدُ

ومنها :

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا
يعارضه غرر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما
لتحفظ أعراضٌ تكفلها المجدُ

ويقال إنه نظمها بحضرة شاهين باشا تبكيتا ان زعم قصور الشعراء

عن معارضة أبى الطيب المتنبى فى قوله :

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى
عدوًّا له ما من صداقته بدّ

ومن شعره قوله أيام اختفائه ، وكتب بها إلى صديق له يسليه على نازلة نزلت به :

ياصاحبى دع عنكَ قولَ العازلِ
واسمع نصيحة عارفٍ بالحاصلِ
اِجعَل نجدْ صفوَ الزمانِ فإنه
من قسمةِ الفدم الغبيِّ الجاهلِ
ودع التعقلَ بالتغفل يستقم
أمرُ المعاشِ لحظه للغافلِ
وارض البلادَة تغتنمْ من بابها
مالاً وجاهاً بعد ذكرِ خاملِ
وإذا أبيتَ سوى العلوم فلا تضقْ
بحروبِ دَهرٍ لايميلُ لفاضلِ
قلبْ تواريخَ الأُلىَ سبقوا تجدْ
دُنياكَ ماقيدت بغير الباطلِ
تجدِ الأفاضلَ فى الزَّواياَ كلهم
حالَ الحياةِ وبعدَها بمحافلِ

العلمُ ستْرٌ كالسحاب به ترى
شمسَ الحقيقة خلفَ ذاكَ الحائلِ
هـــل أبصرت عيناكَ ديواناً به
مـدح البليغ جميـل سعدٍ حافلِ
إنْ قلتَ : إىْ فاذكرْ لنا من نالهُ
أو : لا .. فعِشْ كالناسِ فى ذا الساحلِ
ضِدانِ لاتلقاهما فى واحـــــدٍ
مالُ الغبيِّ وحكمةٌ للكامِـلِ

ثم ذيلها بنثر أضربنا عن ذكره .

ومن شعره ما ضمنه كتاباً كتبه مدة اختفائه لأحد أصدقائه :

وبعدُ فهـذا شرح حالة غائب
عليـه من اللطفِ الخفى ستورُ
تدورُ به الأهـوالُ حـول مدارها
فيصـبرُ والقلبُ الرضىُّ صبـورُ
عسى فـرَجٌ يأتى به الله إنهُ
عـلى فرجى دونَ الأنام قـديرُ

* * *

محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ

[كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مقدمة العلماء الذين اصطفاهم المغفور له أحمد تيمور باشا لتلقى العلم والمعرفة عنهم . وقد سجل التاريخ أن الإمام محمد عبده كان يتخذ من دار تيمور (باشا) فى درب سعادة ندوة يلقى فيها دروسه على صفوة من العلماء والأدباء النابهين وغيرهم .

وقد عثرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية بين مخلفات المغفور له أحمد تيمور (باشا) على جذاذات عدة تضمنت الكثير من سيرة الإمام وأعماله ، رأت نشر موجزها التالى فى هذا الكتاب]

ولد الإمام محمد عبده ونشأ فى قرية صغيرة بعيدة عن المدائن ، وهى قرية محلة نصر بمركز شبراخيت بالبحيرة .

وكان والده من أهل الطبائع السليمة والأخلاق القويمة . أما أمه فكانت من قرية « حصة شبشير » بمركز طنطا ، تنتمى إلى بيت من بيوتها المعروفة ، يعرف ببيت آل عثمان .

ويقول الإمام محمد عبده رحمه الله — فيما كتبه من تاريخ حياته : « كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية ، وكل من فيها دونه ، وهو بذلك أعظم رجل فى الدنيا ، فإن الدنيا لم تسكن أوسع عندى من محلة نصر .

وكان ينزل عنده بعض الحكام ولاينزلون فى بيت العمدة ، مع أنه أغنى وأكثر دوراً وأرضين . ونشأ فىّ بذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لايتعلقان بالثروة وكثرة المال . وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته ، وشدته فى المعاملة ، وقسوته على من يعاديه . وأخذت عنه ماعدا القسوة . أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لاتنزل عن مكانة والدى ، وكانت ترحم المساكين وتعطف على الفقراء ، وتعد ذلك مجداً ، وطاعة لله وحمداً » .

شب الأستاذ على قدم أبيه محباً للفروسية والرماية والسباحة ، حتى شهر بذلك بين أترابه فى القرى المجاورة .

بعد تعلمه القراءة والكتابة بمنزل والده بلغ العاشرة من عمره سنة (١٢٧٦ هـ — ١٨٥٩ م) فانتقل إلى دار حافظ للقرآن لم يكن بالقرية غيره ، فقرأ الكتاب المجيد أول مرة واستظهره بعد ذلك فى عامين . ويظهر لمن رأى خط الإمام ، وهو لطيف من غير أن يكون جميلا ، أن معلمه الأول كان على شىء من النظام والمهارة فى كتابته .

وفى سنة ١٢٧٩ هـ — ١٨٦٢ م ذهب إلى الجامع الأحمدى بطنطا ليجوّد القرآن ، وكان هناك أخوه لأمه الشيخ مجاهد ، الذى يقال إنه كان قارئاً مجيداً وصل إلى أن صار شيخاً للقارىء بطنطا .

أتم الشيخ فنون التجويد فى نحو سنتين على الوجه الأكمل ، ولم تنفر فطرته السليمة من أساليب هذا التعليم فى الجامع الأحمدى ، المشهور بتعليم

القرآن وفنون القراءات منذ زمان . وكان رحمه الله من أحفظ الناس للقرآن ، وأجودهم فى تلاوته نغمة ، وأحسنهم ترتيلا .

وفى سنة ١٢٨١ هـ — ١٨٦٤ م — جلس فى دروس العلم فى المسجد الأحمدى . قال الأستاذ فى الترجمة التى كتبها لنفسه : « وقضيت سنة ونصفاً لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم . . . فأدركنى اليأس من النجاح ، وهربت من الدرس، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر علىّ أخى وأخذنى إلى المسجد الأحمدى ، وأراد إكراهى على طلب العلم ، فأبيت وقلت له : قد أيقنت ألا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق علىّ إلا أن أعود إلى بلدى ، وأشتغل بملاحظة الزراعة ، كما يشتغل الكثير من أقاربى . وانتهى الجدل بتغلبى عليه ، وأخذتُ ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر ، على نيّة ألا أعود إلى طلب العلم . وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ هـ ١٨٦٥ م — على هذه النية » .

قال الأستاذ بعد ذلك : « فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا ، وهى بعينها طريقته فى الأزهر ، وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذا السبيل فى التعليم ، غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم أنفسهم ، فيظنون أنهم فهموا شيئاً ، فيستمرون على الطلب ، إلى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال . ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده داعية الأسترشاد ،

ويؤذوى بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه » .

وبعد أن تزوج الفتى الهارب من طلب العلم ، قهره والده على الرجوع إلى طنطا ، فهرب فى الطريق إلى بلدة « كنيسة أورين » من قرى مركز شبراخيت ، وغالب سكانها من خؤولة أبيه ، وصادف فى مهربه من داوى نفرته ، وسهل عليه من طلب العلم ما وجده عسيراً ، إذ اتصل بالشيخ درويش خضر ، أحد أخوال أبيه ، وهو رجل سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا ، ووصل إلى طرابلس الغرب ، وجلس إلى السيد محمد المدنى والد الشيخ ظافر ، وتعلم عنه شيئاً من العلم ، وأخذ عنه الطريقة الشاذلية ، وكان يحفظ بعض كتب الحديث ، ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته ، واشتغل بالزراعة .

ووصف الأستاذ الأثر الذى وجده فى نفسه من صحبة الشيخ درويش خضر ، فقال :

« رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير العالم الذى كنت أعهده ، واتسع لى ما كان ضيقاً ، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيراً ، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً . وتفرقت عنى هموم النفس ، إلا هماً واحداً ، هو أن أكون كامل المعرفة ، كامل أدب النفس » .

وبعد أن قضى الشاب فى « كنيسة أورين » خمسة وعشرين يوماً ، ذهب إلى طنطا فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ — أكتوبر سنة ١٨٦٥ م ، مشروح الصدر لطلب العلم ، مقبلا عليه ببركة إرشاد الشيخ درويش .

وإذا كانت التربية الحديثة تدعو إلى تهذيب الذوق بفنون الجمال ، فإن التربية الصوفية تدعو إلى تلطيف السرّ بأنواع الرياضة ، كالعبادة المشفوعة بالفكرة ، والألحان المستخدمة لقوى النفس . هذه التعاليم من شأنها أن تربى الوجدان ، وتلطف السر ، وتكمل النفس وتزينها . ولاجرم أنه كان صوفى الأخلاق .

قضى الإمام نحو أربع سنين فى بداية تكوينه الفكرى بالجامع الأحمدى بطنطا — نسبة إلى السيد أحمد البدوى ، أشهر أولياء القطر المصرى . وقد نبهت هذه السنوات عقله إلى البدع الدينية وعملها فى العقول والأخلاق ، بيدأنها مست أيضاً بعض الجوانب من نفسه ، فتركت فى منازعها المتسامية إلى الكمال والفهم موطن تأثر . قال الأستاذ فيما كتبه من تاريخ حياته : « وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة (١٢٨٢ هـ) كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم « معانى شرح الزرقانى » فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب ، فلما رفعت رأسى إليه قال مامعناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء ! فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ فقال : سبحان الله ! من جَدَّ وَجَدَ . ثم انصرف . فعددت ذلك القول إلهاماً ساقه الله إلىّ ، ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا .

ذهب المجاور الشيخ محمد عبده بتصوفه إلى الأزهر فى شوال سنة ١٢٨٢هـ فبراير سنة ١٨٦٦ م قبل ست سنوات من وضع الشيخ المهدى العباسى شيخ الأزهر أول قانون للتدريس فيه . وأراد الجيل العلمى الجديد فى ذلك العهد أن

يعرب كتبا أوربية مكتوبة فى الغالب بلسان فرنسى، ولم يجد من المصطلحات القديمة متسعاً ، فوضع عبارات محدثة ، وأوجد أسلوباً جديداً لم يرض عنه الأزهريون ، ومنذ يومئذ دخل إلى الأزهر التنازع بين القديم والجديد .

أما الروح السائدة فى التعليم الأزهرى فكانت على ماوصفها بعض علماء الفرنجة فى قوله : « ولئن كانت أنماط التعليم والبحث فى الأزهر تختلف عما هو مستعمل فى الغرب الآن اختلافاً أساسياً ، فهى لاتختلف فى شىء عن الأنماط التى كانت عندنا قديماً » ، وفى قوله : « أثر العلوم النقلية فى قهر العقول الذى أخذ فى التلاشى عندنا منذ قرون لايزال فى عنفوان سطوته فى الجامعات الإسلامية » .

وليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر ـ يومئذ ـ هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص ، ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون .

والمفروض أن الأجيال متراجعة إلى الانحطاط ، والأجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبى صلى الله عليه وسلم من خلف إلى سلف ، وأن الأئمة المجتهدين بعداء فى عصور ذاهبة فى أعماق الماضى ، لا يستطيع الحاضر أن يدرك غبارها .

ونسارع إلى بيان أن أستاذنا صرح فى تفسير سورة « العصر » بفساد ما عليه الناس من ذمّ عصورهم ، ونسبة ما شاءوا من الخير إلى ما كان قبلهم من العصور ، كما صرح فى كثير أقواله من وكتاباته بعيب التعليم الأزهرى ومناهجه .

هذا وكان فى الأزهر نفسه تدافع بين الشرعيين والصوفية ، فأولئك كانوا يرون فى الخروج عن العلوم النقلية المتداولة فى الأزهر تمرداً على الدين ، وهؤلاء كانون يطمحون إلى أنواع من المعارف التى لها مساس بالتصوف .

ودليل هذا التدافع ماذكره الصوفى الأزهرى الشيخ حسن رضوان المتوفى سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م فى منظومته المسماة «روض القلوب المستطاب». وقد كان للشيخ المذكور مريدون بين علماء الأزهر وطلابه ، منهم الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى وهما من أساتذة الشيخ محمد عبده . ومنهم الشيخ محمد عبده نفسه ، وجماعة من إخوانه . وبذلك يظهر أن الشيخ حينما جاء إلى الأزهر انضم إلى حزب التصوف، وهو أقل الحزبين جموداً ، وأقلهما نفرة من الجديد .

كان الأستاذ متصوفاً مدة الدراسة مع شيوخه وزملائه ، متصوفاً فى أيام المسامحات ، مع خال أبيه الشيخ درويش خضر ، حتى انطبع تفكيره بنوع من الخيال الصوفى ، الذاهب فى الروحانيات إلى ما يجاوز مدى الفهم أحياناً .

انساق بعض الأساتذة فى الأزهر إلى دراسة الفلسفة الإسلامية بحكم نزوعه إلى التصوف الإسلامى الذى صار متأثرا بمذاهب الفلسفة ، وخصوصاً مذهب أرسطو الذى يعتبر إماماً لفلاسفة العرب . كما انساق بعضهم أيضاً إلى مدارسة الأدب باعتباره من الفنون الجميلة . وقد كان الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيونى من أساتذة الشيخ محمد عبده ، فهو كان متصلا بالحركة الصوفية المخلوطة بالفلسفة ، وكان متصلا بالحركة الأدبية . على أنه لم يبعد كل

البعد عن المحافظين على القديم، فحضر دروس زعمائهم المشهورين كالشيخ عليش والشيخ رفاعى والشيخ الجيزاوى والشيخ الطرابلسى والشيخ البحراوى .

ولما حضر إلى مصر السيد جمال الدين الأفغانى — فى سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م صاحبه الأستاذ الشيخ محمد عبده ، يحضر دروسه ، ويلازم مجالسه التى كانت مجالس حكمة وعلم . وكان يومئذ فتى متأثرة عواطف قلبه الفتى بمنازع التصوف ، ورياضاته ومواجده . وكان يتلقى علوم الأزهر على أنماطها المعروفة ، شاعراً بأن وراءها كمالاً علميا لايجده فيما حوله . . وكان السيد الأفغانى وحده قادراً على تخليص الشيخ محمد عبده من خموله الصوفى ، وتخليصه من الحيرة فى التماس الكمال العلمى ؛ إذ كان السيد جمال الدين الأفغانى ، الكبير بمواهبه الفطرية ، وبسعة علمه ، وحسن نظام فكره ، وسمو مطامحه ، وعلو نفسه القوية ، المشتعلة حياةً وعزماً ، والمملوء بالحوادث الجلى والآلام ، قد صاحبه الشيخ محمد عبده تلميذاً وصديقاً منذ سنة ١٢٨٨ — ١٢٩٦ هـ (١٨٧١ — ١٨٧٩ م). وبعد سنتين من صحبة الشيخ محمد عبده للسيد جمال الدين ظهر لنا ذلك الشاب المتصوف الذى كان ينطلق فى القول على وجل إذا سأله العامة عن شىء من أمر دينهم فى تلك المجامع التى كان يقوده إليها خال أبيه الشيخ درويش ، مؤلفا جريئاً يكتب رسالة سنة ١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م وفيها الكثير من المذاهب الفلسفية والصوفية .

وفى سنة ١٢٩٢ هـ — ١٨٧٥ م — ألف الشيخ محمد عبده حاشيته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية . ولم يكن يومئذ قد جاوز السادسة

والعشرين من عمره ولكنه ظهر فيها محيطا بمذاهب المتكلمين والفلاسفة المتصوفة إحاطة فهم ونقد ، وقد ضمنها توضيحاً لمختلف المذاهب فى الإلهيات والنبوات .

وأول ما نشر على الناس من آثاره هو ما كتبه فى جريدة « الأهرام » لبداية نشأتها سنة ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦ م وهى فصول سامية المنزع مشتملة على أصول الدعوة الإصلاحية التى صرف حياته فى سبيلها . وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس إلى ذلك الفتى الناهض إلى السابعة والعشرين من عمره نهضة المصلحين الكبار ، عاقلاً جريئاً .

وفى سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م . نال الشيخ محمد عبده الشهادة العالمية الأزهرية من الدرجة الثانية ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة .

وأخذ يدرس كتب المنطق والكلام المشوب بالفلسفة فى الجامع الأزهر ويدرس فى داره لبعض المجاورين كتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه ، وكتاب التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية ، تأليف الوزير فرانسوجيزو ، وتعريب الخواجة نعمة الله الخورى .

وفى أواخر سنة ١٢٩٥ هـ — ١٨٧٩ م نفى من مصر بمساعى الإنجليز السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان عمله السياسى شجى فى حلق ممثل إنجلترا بمقدار ما كان تجديده لدرس الفلسفيات غيظاً للجامدين من أهل الأزهر . وعزل الشيخ محمد عبده من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن ، وأمر بأن يقيم فى قريته « محلة نصر » لا يفارقها أبداً إلى بلد آخر .

فى أوائل حكم الخديو توفيق حصلت هذه الحادثة ، وكان الوزير الكبير رياض (باشا) خارج القطر ـ وهو الذى قد زين للسيد جمال الدين المقام فى مصر وأمده بالمعونة ليستعين بها على تربية شباب مصلح . وإذا كان الوزير الكبير قد عجز عن ردّ مافات من نفى السيد الأفغانى ، فما كان ليفوته أن ينتفع بتلاميذه ، وما كان ليترك خليفة السيد جمال الدين منفياً فى قرية من قرى البحيرة ، محرما عليه أن يخرج منها ، فاستصدر له عفواً من الخديو سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠م) وعينه محرراً فى الجريدة الرسمية ، ثم جعله فى آخر السنة رئيس تحريرها .

ولقد نهض الشيخ محمد عبده بحركة إصلاح هيأت له مساعدة رياض وسائلها ، وأعانه عليها خيرة تلاميذ السيد جمال الدين الذين كانوا يشتغلون معه فى تحرير الجريدة الرسمية . إلا أن صلة الأستاذ بالأزهر قد انقطعت يومئذ ، فلم يعد معلماً يريد أن يصلح طرق التعليم فيه ، ويرشد أهله إلى العلوم الجديدة ، ولكنه أصبح صحافياً يحاول الإصلاح الاجتماعى والسياسى على مبادئ الحرية والعدالة والشورى .

ألم الشيخ رئيس تحرير الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » فى فصوله الكبيرة الفائدة القوية الروح بوجوه الإصلاح التى كانت تنبعث عزيمته إليها . فدعا إلى التعاون على الخير ، وحبذ فكرة الحرية ورفع المظالم عن الأهالى . وعاب على الشعب كسله ، ونادى بإصلاح التعليم والتربية فى المدارس ، وحمل على الرشوة وأهلها ، وبين أن الحق للقانون لا للقوة ، وذم إسراف

الأهالى وتمسكهم بظواهر المدنية مع الغفلة عن وسائل المدنية الصحيحة ، وعالج إصلاح منتدياتنا وإصلاح بيوتنا . وذكر رأيه فى خطأ العقلاء الذين يريدون الرقى طفرة ووثوباً .

ثم تعرض الأستاذ لنوع من الإصلاح الدينى ، شغف به فى أدوار حياته الإصلاحية كلها : ذلك هو تطهير الإسلام من البدع التى شوهت شعائره وجنت عليه . وهذه المقالات تجمع مبادئه الوطنية ، ومذاهبه فى الحرية ، وطريقه فى الإصلاح .

كان الشيخ وطنيا يرى أن خير أوجه الإصلاح للوطن هو تحقيق وحدته ليمتنع الخلاف والنزاع فيه . على أنه نصير للمبادىء التى تدعو إلى المحافظة العامة على دعائم السلام والإخاء بين الناس . وهو داع إلى الحرية ، حرية العمل ، ورفع سوط القسوة غير القانونية ، بحيث لا يسخر أحد فى عمل من الأعمال إلا فيما يعود بالمنفعة العامة على البلاد . أما سبيل الأستاذ فى الإصلاح ، فهى سبيل التدريج ، يريد أن يحفظ للأمة عوائدها الكلية المقررة فى عقول أفرادها . ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعد عنها بالمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج ، حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرقى من حيث لا يشعرون .

وتأثر الشيخ بمبادىء أستاذه ، ومع ذلك كان لمذاهبه الإصلاحية استقلال يجعل لها شخصية وحدها . ولقد كان حين توليه تحرير الجريدة حديث عهد بصحبة أستاذه ، حديث عهد بالتخرج على يديه . . وكانت له على هذا سبيل

فى الإصلاح ليست من كل وجه سبيل السيد جمال الدين — إذ كان السيد مشتعل الحماسة ، يريد أن يلهب النفوس فيؤجج نارها . ثم يصوغ من ضعفها قوة ، ومن ذلها عزا . كان يرى أن الثورات هى سبيل الإصلاح الاجتماعى والسياسى . أما الشيخ محمد عبده أيام تحرير الجريدة الرسمية فكان معلما مصلحاً يطلب الأناة فى دفع الأمم إلى الرقى ، ليعلها ويهذبها أولا ، ثم يسوقها برفق إلى ما علمت .

ولقد كانت له وهو رئيس لتحرير الجريدة الرسمية يدٌ عاملة فى حركة الأفكار ، ولم يكن ممن يدعون إلى الإصلاح من طريق الثورة عندما هبت أعاصير الثورة العرابية ، ولما أن رآها قائمة لنصرة أغراض هى مبادئه ومبادىء أستاذه اتصل بها ، وألقى فى نارها حطباً ، وقد حوكم مع زعمائها ، وحكم عليه بالنفى ثلاث سنين وثلاثة أشهر . فسافر رحمه الله إلى سورية فى حدود سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٣ م وأقام فيها سنة ، وسافر إلى أوربا على موعد بينه وبين أستاذه وصديقه السيد جمال الدين ، فأقام فيها عشرة أشهر معظمها فى باريس ، وهناك أصدرا معا جريدة « العروة الوثقى » التى كان السيد الأفغانى مدير سياستها والشيخ محمد عبده محررها الأول .

وكانا ألفا جمعية من مسلمى الهند ومصر والمغرب وسورية ، غرضها السعى فى جمع كلمة المسلمين ، وإيقاظهم من رقادهم ، وإعلامهم بالأخطاء المحدقة بهم وإرشادهم إلى طريق مقاومتها . إلا أنه فى آخر سنة ١٣٠١ هـ — ١٨٨٤ م احتجبت الجريدة بعد ثمانية أشهر لقيت فيها كل مصادرة فى الهند ومصر .

وأخفق حلم السيد جمال الدين الأفغانى بإنشاء دولة إسلامية تنهض بالشرق نهوضا يزاحم الغرب بالمناكب ، ويحد من عدوانه .

ثم سافر الأستاذ إلى تونس ، فأقام فيها أياماً . وسافر إلى بلاد أخرى متنكراً لتوثيق عقود العروة الوثقى السرية . وألقى عصا السير بعد ذلك إلى بيروت . فأقبل عليه أهل العلم والفضل من جميع الملل والطوائف . وكانت داره مدرسة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف والآداب ، وقد وصلته روابط وُدّ بمحى الدين بك حماده ، فتزوج بنت أخى هذا الصديق بعد وفاة زوجته الأولى .

وفى أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — ١٨٨٥ م . دُعى للتدريس فى المدرسة السلطانية لإحياء اللغة والدين فيها . وكان يشتغل مع التدريس بالتأليف والكتابة . وقد ألّف « رسالة التوحيد » هناك ، ونقل إلى العربية رسالة « الردّ على الدهريين » التى كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية ، وشرح كتاب « نهج البلاغة » و « مقامات بديع الزمان الهمذانى » .

وعاد الأستاذ فى سنة ١٣٠٦ هـ — ١٨٨٨ م . من منفاه ، ولكن الخديو توفيق خشى أن يربى له تلاميذ على أفكاره ومنازعه ، فلم يرض بتعيينه معلماً — كما كان يشتهى — بل عينه قاضيا بمحكمة بنها الأهلية ، ومنها انتقل إلى محكمة الزقازيق ، فمحكمة عابدين .

وفى سنة ١٣٠٨ هـ — ١٨٩٠ م عين مستشاراً بمحكمة الاستئناف الأهلية .

وفى سنة ١٣١٢ هـ — ١٨٩٤ م جعلته الحكومة المصرية عضواً فى مجلس إدارة الأزهر ، وهو أول مجلس أسس بسعيه ليكون رسول الإصلاح .

ولست بقين من المحرم سنة ١٣١٧ هـ (٣ يونية ١٨٩٩ م) عين مفتيا للديار المصرية . وفى هذه السنة عينها جعلته الحكومة عضواً فى مجلس شورى القوانين .

كان عند الأستاذ ميل إلى تعلم لغة أجنبية ، فلم تدع له الحوادث متسعا . لكن تعلم لغة أجنبية كان أمنية من أمانيه لم تزل تعالجها همته الكبيرة حتى بلغتها . تعلم اللغة الفرنسية بعد أن عاد إلى مصر واشتغل بالقضاء ، وهو ابن أربع وأربعين سنة ، وأحكمها قراءة وكتابة وحديثا ، كما ذكره أكثر من ترجموا له — وكان رحمه الله يقول : « من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوربية فلا يعد عالماً فى هذا العصر » .

وقد سافر إلى أوربا عدة مرات ، واستفاد من سياحاته ومن مطالعاته لكتب الغربيين فى الفنون المختلفة ، وظهر أثر ذلك فى أفكاره وكتاباته ودعواته الإصلاحية .

أقام الأستاذ فى القضاء الأهلى حوالى عشر سنين ، ظهرت فيها كمالاته الأخلاقية والعلمية . وانصرف فى أثنائها إلى درس اللغة الفرنسية والمطالعة ، والقيام بأعباء منصبه . وتلك كانت مدة تجمع لوثبة الإصلاح التى بدأت يوم دخوله مجلس إدارة الأزهر فتعيينه مفتياً للديار المصرية .

فى ذلك العهد أزهر نشاط الأستاذ فى الإصلاح الدينى والعلمى والاجتماعى ،

ووصل الشيخ محمد عبده — كما يقول قاسم بك أمين فى تأبينه — : « إلى مقام الإمام بأوسع معناه ، مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة، ويحركها نحو الخطة التى رسمها ، ويسوقها فى طريق المستقبل الذى هيأه لها » .

وظل الأستاذ الإمام يجاهد فى سبيل الإصلاح والرقى ، غير منهزم أمام جمود الجامدين ، وظلم الظالمين ، وكيد الكائدين ، حتى ذهب إلى ربه يوم ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ — ١١ يولية سنة ١٩٠٥ م رحمه الله تعالى .

وقد كتب الشيخ محمد عبده بقلمه فى ترجمته لنفسه ، ملخصاً سيرته وأعماله بقوله : « ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من موازين العقل البشرى ، التى وضعها الله لتردّ من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم باعثاً على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى آداب النفس وإصلاح العمل . وكل هذا أعده أمراً واحداً ، وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم .

وأما الأمر الثانى : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء كان ذلك فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها . أو فيما

تنشره الجرائد على الكافة منشأ أو مترجماً من لغات أخرى . أو فى المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب .

وهناك أمر آخر ، كنت من دعاته والناس جميعاً فى عمى عنه ، وبعد عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. نعم كنت ممن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى هذه الأمة التى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال ، من مدة تزيد على عشرين قرناً .

دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لايرده عن خطئه ولايقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل .

جهرنا بهذا القول ، والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيدٌ له وأى عبيد .

نعم إننى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة ، وهى لاتزال فى كثير مما ذكرت قائمة .

ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة وقد قارب — أما أمر الحكومة فقد تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرةٌ تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على

تنميته السنين الطوال . فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن . والله المستعان ».

وقد نعته أكثر الصحف العربية والإفرنجية ، وأفاضت القول فى رثائه ، واحتفل بتشييع جنازته رسمياً فى الإسكندرية والقاهرة . واشترك فيها ألوف من مختلف الطوائف والهيئات .

وفى اليوم الأربعين لوفاته أقيم حفل كبير لتأبينه تحدث عنه فيه الأساتذة حسن عاصم (باشا) والشيخ أحمد أبو خطوة ، وحسن عبد الرازق (باشا) وقاسم أمين (بك) ، وألقى العالم الأديب حفنى ناصف (بك) قصيدة عصماء ، كما ألقى شاعر النيل حافظ إبراهيم (بك) قصيدة رثاء أخرى ، استعيدت أبياتها مرات ، ونذكرها فيما يلى :

سلام على الإسلام بعد محمد
سلام على أيامه النضراتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحجى
على البر والتقوى ، على الحسناتِ
لقد كنت أخشى عادىَ الموت قبلَهُ
فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوالهفى والقبر بينى وبينهُ
على نظرةٍ من تلكمُ النظراتِ

وقفت عليه حاسرَ الرأسِ خاشعاً
كأنى خيالَ القبر فى عرفاتِ
لقد جَهلوا قدر الإمام فأنزلوا
تجاليدهُ فى مُوحشٍ بفلاةِ
ولو أضرحوا بالمسجدين لأنزلُوا
بخير بقاع الأرض خير رفاتِ
تباركت ، هذا الدينُ دينُ محمد
أيترك فى الدنيا بغير حُماةِ ؟
تباركت ، هذا عالمُ الشرق قد قضى
ولانت قناةُ الدين للغمزاتِ
زرعت لنا زرعاً فأخرجَ شطأهُ
وبِنْتَ ولما نجتنِ الثمراتِ
فواهاً له ألاَّ يُصيبَ موفقاً
يشارفهُ والأرضُ غيرُ مواتِ
مددنا إلى الأعلام بعدكَ راحنا
فرُدت إلى أعطافنا صَفِرات
وجالت بنا تبغى سواكَ عيونُنَا
فعدن وآثرن العمى شَرِقاتِ

وآذوك فى ذات الإله وأنكروا
مكانك حتى سودوا الصفحات
رأيتَ الأذى فى جانب الله لذة
ورحتَ ولم تهمم له بشكاةِ
لقد كنت فيهم كوكباً فى غياهب
ومعرفة فى أنفس نكرات
أبنتَ لنا التنزيلَ حكماً وحكمةً
وفرقت بين النور والظلماتِ
ووفقتَ بين الدين والعلم والحجى
فأطلعتَ نوراً فى ثلاث جهاتِ
وقفت لمانُوتو ورينانَ وقفة
أمدك فيها الروحُ بالنفحاتِ
وخفت مقام الله فى كل موقفٍ
فخافك أهل الشك والنزعاتِ
وكم لك فى إغفاءة الفجرِ يقظة
نفضتَ عليها لذّة الهجعاتِ
ووليت شطرَ البيت وجهك خالياً
تناجى إلَه البيت فى الخلواتِ

وكم ليلةٍ عاندتَ فى جوفها الكرى
ونبهتَ فيها صادقَ العَزَماتِ
وأرصدتَ للباغى على دين أحمد
شَباةَ يراع ساحر النفثاتِ
إذا مس حد الطرس فاض جبينه
بأسطار نور باهر اللمعات
كأن قرار الكهرباء بشقه
يُريكَ سناه أيسر اللمساتِ
فياسنةً مرَّت بأعوادِ نعشه
لأنت علينا أشأم السنواتِ
حطمت لنا سيفا وعطلت مِنبراً
وأذويت روضاً ناضر الزهراتِ
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفسا
على جمرات الحزن منطوياتِ
رأى فى لياليك المنجمُ ما رأى
فأنذرنا بالويل والعثراتِ
ونبأه علم النجوم بحادثٍ
تبيت له الأبراج مضطربات

رمى السرطان الليث والليث خاذرٌ
وربَّ ضعيف نافذ الرميات
فأودى به ختلاً فمال إلى الثرى
ومالت له الأجرامُ منحرفاتِ
وشاعت تعازى الشهب باللمع بينها
عن النيِّر الهادى إلى الفلواتِ
مشى نعشهُ يختال عجباً بربِّهِ
ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تُقبِّلهُ
وتدفعه الأنفاس مستعراتِ
بكى الشرقُ فارتجت له الأرضُ رجَّةً
وضاقت عيونُ الكون بالعبرات
ففى الهند محزون وفى الصين جازعٌ
وفى مصر باكٍ دائم الحسرات
وفى الشام مفجوعٌ وفى الفرس نادبٌ
وفى تونسٍ ما شئت من زفراتِ
بكى عالمُ الإسلام عالِمَ عصره
سراج الدياجى هادم الشبهاتِ

ملاذ هياييل ثمال أرامـلٍ
غياث ذوى عـدم إمام هـداةِ
فـلا تنصبوا للناس تمثـال عبده
وإن كان ذكرى عبرةٍ وثباتِ
فإنى لأخشى أن يضلوا فيومئوا
إلى نور هـذا الوجه بالسجداتِ
فياويح للشورى إذا جـدّ جدّها
وطاشت بهـا الآراء مشتجراتِ
وياويح للفتيا إذا قيـل من لهـا
وياويح للخـيرات والصـدقاتِ
بكين على فـردٍ وإن بـكاءنا
عـلى أنفسٍ لله منقطـعاتِ
تعهدها فضـل الإمام وحاطهـا
بإحسانه والدهر غـير مُواتِ

* * *

فيامنزلاً فى عـين شمس أظلنى
وأرغم حسادى وغمّ عـداتى
دعائمه التقوى وآساسه الهدى
وفيـه الأيادى موضـع اللّبِنات

عليك سلام الله مالك موحشاً
عبوس المعانى مقفر العرصاتِ
لقد كنت مقصود الجوانب آهلاً
تطوف بك الآمال مبتهلاتِ
مثابة أرزاق ومهبط حكمة
ومطلع أنوار وكنز عظاتِ

أحمد أبو خطوة

١٢٦٨ هـ — ١٣٢٤ هـ

يتصل نسبه بالإمام الحسين بن على رضى الله عنهما ، وجده السابع أبو خطوة مدفون فى « مطوبس » . وجده الحادى عشر محمد أبو خطوة أول من نزل من الأسرة فى بلدة كفر ربيع بمركز تلا فى المنوفية ، وقد هاجر إليها بعد موت أبيه سالم المدفون بالحدين بالبحيرة ، ومن أجداده : السيد عبد الرحيم القنائى صاحب الضريح المشهور بقنا .

وقد ولد الشيخ أحمد أبو خطوة فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ ببلدة كفر ربيع ، ونشأ بها فحفظ القرآن وبعض المتون ، ثم سافر للقاهرة لطلب العلم بالأزهر فى ١٦ شوال سنة ١٢٨١ هـ واشتغل فيه بقراءة الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

ومن شيوخه الشيخ محمد البسيونى البيبانى ، والشيخ أحمد الرفاعى الفيومى ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد الله الدرستاوى ، والشيخ حسن الطويل .

وكان أكثر تحصيله للعلوم العقلية على الشيخ حسن الطويل ، ولازم صحبته ، وتخلق بأخلاقه ، وتلقى عنه فى داره العلوم الحكمية والرياضية وكثيراً من كتبها مثل : « شرح الهداية » للبيدى ، و « العلوالع » ، وأكثر

« المقاصد والمواقف » و« إشارات ابن سينا » بالشروح لنصير الدين الطوسى والإمام الرازى . و « المحاكمات » وبعض كتاب « النجاة » لابن سينا ، و « أشكال التأسيس » بشروحها فى الهندسة . و « تحرير إقليدس » . وفى الهيئة « شرح الجغمينى » وتذكرة « نصير الدين الطوسى » وفى الحساب خلاصة بهاء الدين العاملى بشرح البورصاوى ، و « المعونة » وشرح ابن الهائم وغيرها . وفى المنطق « القطب » بحواشيه و « المطالع » و « الخبيصى » و « إيساغوجى » وغيرها .

وامتحن للعالمية والتدريس فى ١٨ صفر سنة ١٢٩٣ وكان مجلس الامتحان مكوناً من الشيخ عبد الرحمن البحراوى ، والشيخ عبد القادر الرافعى الحنفيين والشيخ أحمد شرف الدين المرصفى والشيخ زين المرصفى الشافعيين ، والشيخ أحمد الرفاعى والشيخ أحمد الجيزاوى المالكيين ، برياسة شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد المهدى العباسى ، فلما امتحنوه أعجبوا به إعجاباً شديداً لجودة تحصيله وشدة ذكائه ، فأجازوه ، إلا أنه أخر التدريس لاشتغاله بتتميم ما كان يقرؤه على الشيخ حسن الطويل . ثم ابتدأ فى القراءة بالأزهر سنة ١٢٩٦هـ فقرأ به الكتب المتداولة به وغيرها ، وتخرج عليه جمع من الفاضل ، منهم : الشيخ محمد شاكر ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ محمد بخاتى ، والشيخ سعيد الموجى ، والشيخ محمد الفريني ، والشيخ مصطفى سلطان .

ثم جعل مفتياً لديوان الأوقاف ، فكانت له اليد الطولى فى إصلاحه وعاون من به على تحسين أموره بجودة عقله وحسن رأيه . وحسبك أنه دخله

وإيراده مائة وعشرون ألف دينار وخرج منه وإيراده يربو على مائتى ألف دينار . ثم نقل عضواً فى المحكمة الشرعية الكبرى بالقاهرة ، ورأس المجلس العلمى للنظر والفصل فى القضايا الكبرى ، ثم انتدب للمحكمة العليا بعد ذلك ، فكانت له اليد الطولى فى إصلاحها ، ومنع شهادات الزور ، وإصلاح حال المحامين ، وكانت وفاته فى شوال سنة ١٣٢٤ هـ عليه رحمة الله .

أحمد مفتاح

١٢٧٤ — ١٣٢٩ هـ

هو العالم الشاعر الناثر الشيخ أحمد بن مفتاح بن هرون بن أبي النعاس . ينتهي نسبه إلى عُمار ، بضم العين المهملة وتخفيف الميم ، أحد العرب النازلين من الصفراء إلى أرض مصر حوالى القرن العاشر ، وبين أبي النعاس وعمار جدان أو ثلاثة .

ولما ورد عمار « مصر » قطن بإقليم منية ابن الخصيب[1] في صعيد مصر ، وقام بين عرب تلك الجهة منازعة أدت إلى مقاتلة ، كان جد المترجم أبو النعاس له اليد الطولى فيها ، ويقال : إنه حضر بعض الوقائع بدون سلاح ، ولقوته أمسك جحشاً صغيراً من رجليه وضرب به حتى مات الجحش .

وقطن هرون الجد الأدنى للمترجم في بلدة على الشاطىء الغربي للنيل بإقليم المنية تابعة لبني مزار ، أنشأها حسن بن عبد العزيز أحد أجداد المترجم من جهة والدته ، وهي بلدة صغيرة اشتهرت بين العامة باسم بني عجيز محرفاً عن أبي عزيز يعنون به حسن بن عبد العزيز مؤسسها على عادتهم في تكنية الرجل باسم أبيه . وما زال هرون المذكور بها حتى ولد له مفتاح أبو المترجم سنة ١٢٢٩ هـ وكان في هذه البلدة رجل اسمه علي أبو محمد من أقارب والدة

---

(١) هي الآن بمحافظة المنيا .

المترجم ، جعلته الحكومة شيخ المشايخ ، وهو لقب كان يطلق إذ ذاك على من يحكم عدة بلاد ، وكان جائراً فى معاملته ، فاعتدى على أناس من أهل البلد بالضرب حتى أشرفوا على الهلاك ، فاضطر بعض أهلها إلى الشكوى للمدير مستعينين بعلى أفندى الشريعى والد حسن باشا الشريعى . وبعد اللتيا والتى ساعدوهم على الانفصال فانفصلوا واختطوا بلدة أخرى شمالى أبى عزيز سنة ١٢٦٤هـ سموها نزلة عمرو . وانتقل إليها هرون بولده أبى المترجم وابتنى بها داراً كبيرة ، وبقى بها حتى مات بعد أن أسن ، وكان سديد الرأى يرجع إليه فى المشكلات .

ثم سكن هذه البلدة بعده ولده مفتاح وتزوج بها ، وأعقب جميع أولاده وحج سنة ١٣٠٤ هـ فأرخ حجه ولده المترجم بقوله :

حج مفتاح أبى معتمراً

١٣٠٤

ومات سنة ١٣٠٨هـ وكان طويلا ، خفيف اللحية ، وقد وخطها الشيب ، وكان اشتغاله بالزراعة دون غيرها . ويتحرى الحلال فى كسبه ، ويقول الحق ولو على نفسه ، وتعلم القراءة والكتابة فى الكبر ، ولم يجدهما .

ولما وصل نعيه إلى ولده المترجم بالقاهرة رثاه على البديهة بقوله :

قضى والدى بالرغم منى وليتنى ... سبقت لأمر ساورتنى غوائله

لقد عاش دهراً لم يشبه بريبة ... حياة سخىٌّ قاض بالقوم نائله

وقام بعبء الدين والفضل صادقاً ... وما المرء إلا دينه وفضائله

عليه سلام كلما غاب كوكبٌ ... وسالت من الجفن القريح هوامله

وكانت ولادة المترجم ليلة السبت الرابع من شعبان سنة ١٢٧٤ هـ . ونشأ بالبلدة المذكورة فى حياطة والده ، وابتدأ القراءة على الشيخ جاد المولى ، فقرأ عليه القرآن وبعض المتون ، ومكث بعدها نحو ثلاث سنوات . ثم حضر إلى القاهرة سنة ١٢٨٩ هـ لطلب العلم بالجامع الأزهر ، وتلقى عن شيوخ وقته . فقرأ النحو : على الشيخ محمد الشنبونى المغربى ، والشيخ عرفه سالم السفطى والشيخ عبد الله الفيومى ، والشيخ محمد البحيرى ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد الإنبابى . والفقه الحنفى : على الشيخ عبد الرحمن السويسى ، والشيخ صالح قرقوش . وحضر بعض دروس الأستاذ الكبير الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر إذ ذاك . والبيان : على الشيخ عرفة ، والشيخ على الجنائنى ، والشيخ محمد البحيرى . وآداب البحث : على الشيخ محمد البحيرى المذكور . والمنطق : على الشيخ محمد عبده ، والشيخ أحمد أبو خطوة ، والشيخ سالم البولاقى ، والشيخ محمد البحيرى . والعروض : على الشيخ محمد موسى البجيرمى .

وفى أثناء مجاورته كان مسافراً من بلدته إلى القاهرة فى سفينة كبيرة أيام زيادة النيل ، ونزل يغتسل على سكان السفينة مع جماعة ، فانحدر مع الماء فى وسط النيل ، وتبعه أحد المغتسلين لإنجاده ، فمازال سابحاً حتى كلت سواعده ، وكاد يغرق ، ثم نجا ، وخرج على الشاطىء الغربى للنيل ، وأرسل له من بالسفينة زورقاً وصل به إليها . وسافر مرة من القاهرة عائداً إلى بلدته فى سفينة ، فتشاحن مع ربانها تشاحناً أدى إلى إخراجه منها ، فخرج إلى بلدة يقال لها الرقة بإقليم

بنى سويف لا يملك شروى نقير ، سوى كتاب مخطوط رهنه فى أجرة القطار إلى بلدته . وله نوادر كثيرة أمثال ذلك من المشى على القدمين مسافات بعيدة ، والمبيت على الطوى فى كل غدوة وروحة بين القاهرة وبلدته .

وبعد أن قضى سبع سنوات بالأزهر مجداً فى طلب العلم ومباحثة الشيوخ ، عاد إلى بلدته ، ومكث بها نحو سنتين مشتغلا بحفظ الشعر ونظمه ، ولم يكن له بالأزهر كبير عناية به ، لإنصرافه إلى تحصيل العلوم .

ثم حضر إلى القاهرة ، ودخل مدرسة دار العلوم سنة ١٢٩٨ هـ فأعاد بها معظم العلوم العربية مع الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المشهور بالمقدمة على الشيخ حسين المرصفى ، ثم خلفه فى تدريس اللغة العربية شيخنا الشيخ حسن الطويل ، فتلقى عنه بعض المثل السائر ورسالة ابن زيدون الهجوية ، والزوراء للجلال الدوانى فى الحكمة ، وانتفع به كثيراً ، وقال فيه وفى الأستاذ المرصفى :

دار العلوم شكت فراق أبى الهدى
المرصفى الحبر أوحد ذا الزمن
فأجبتها حسن المعارف بعده
لاتجزعى إن الحسين أخو الحسن

وتلقى التفسير والحديث بالمدرسة عن الشيخ أحمد شرف الدين المرصفى . والفقه الحنفى عن الشيخ حسونه النواوى ، والعلوم الطبيعية والرياضية على

أساتذة آخرين بالمدرسة . ثم خرج منها بعد أن نال الشهادة الدالة على براعته سنة ١٣٠٢ هـ فقال بعد مفارقته المدرسة مضمنا :

دار العلوم نثرت نظم أحبةٍ
كانوا بدوراً فى سماء عـلاك
حتى بلى عهدى بهم وتغيروا
« يا دار غيرك البلى ومحاكِ »

واشتغل بعد خروجه من المدرسة بالكتابة فى صحف الأخبار كالأعلام والقاهرة ، وبالتدريس لبعض أناس منهم السيد توفيق البكرى .

ولما اتصل به حسّن له خلع العمامة والجبة وإبدالها بالملابس الأفرنكية والطربوش . ثم فارقه واستخدم كاتباً بمحكمة بنى سويف الأهلية نحو عشرة أشهر . ثم امتحن للدخول بمدرسة دارالعلوم مدرساً للإنشاء ، فحاز قصب السبق وعاد للعمامة والجبة . وأقام بها تسع سنين انتفع فيها الطلبة ، وتخرج عليه كثيرون ممن يحسنون الكتابة الآن(١) .

ثم نقلوه بعد ذلك مدرساً للنحو بالمدارس الابتدائية فى الأقاليم ، فحطوا من درجته ، إلا أنهم أبقوا له مرتبه . وكان أخيراً بمدرسة بنى سويف ، ومرض بها فأحيل على المعاش ، واختار السكنى بالقاهرة ، وابتغى مكاناً يعتزل فيه الخلق ويشتغل بالمطالعة وإتمام بعض تآليفه ، فاختار مصر الجديدة ، واكترى(٢)

(١) إشارة إلى عهد المؤلف العلامة المحقق أحمد تيمور (باشا) .
(٢) استأجر .

بهاداراً صغيرة أقام فيها بمفرده مع خادم مُسِنّ كان يقضي له حاجاته من السوق، ويقوم بتنظيف المكان ...

وكان الشيخ مريضاً بمرض يعرف عند الأطباء بتصلب الشرايين، وهو لا يعلم بأمره، ولا يهتم بنفسه، حتى اشتد عليه أخيراً وهو يظنه ضيفاً مرتحلا، ثم تركه الخادم وعاد لبلده، فبقي وحيداً بالدار حتى أدركه أجله المحتوم فجأة، والأبواب مغلقة عليه، وبقي أياماً لا يعلم به أحد، حتى ظهرت رائحته للجيران، فأخبروا رجال الشرطة، فحضروا وكسروا الأقفال، فألفوه ماثلا في سريره وجزء من كتاب الأغاني ملقى بجانبه، وكان ذلك يوم الأحد ٢٨ من المحرم سنة ١٣٢٩ هـ. وقرر الطبيب أنه مضى على وفاته ثلاثة عشر يوماً، فنقلوه ودفنوه، تغمده الله برحمته.

ولم يكن اشتغاله بالعلوم على السواء، بل كان جل اعتنائه بمتن اللغة والشعر والنثر، فحفظ من اللغة مقداراً وافياً من الغريب وغيره، وكاف بتصحيح شرح القاموس عند ضبطه برمته في المرة الثانية. وكان اشتغاله بالشعر في الأزهر قليلا كما قدمنا، ولم يبرع فيه إلا عند دخوله دار العلوم طالباً، وقد أرخ أول إجادته فيه بقوله:

أقول الشعر عن فكر سليم

١٢٩٨

ونظم بعد ذلك القصائد المتينة والمقطعات السمينة، وكان ينهج فيها منهج العرب لكثرة نظره في دواوينها، واقتناء الكثير منها استنساخاً أو نسخاً

بيده ، ولو تم له الخيال الشعرى كما تمت له الديباجة وجزالة الألفاظ — لكان أشعر أهل زمانه بلا منازع .

ولما عاد الأمير محمود سامى (باشا) أشعر شعراء العصر من منفاه بسيلان ، وكان بعيد العهد بشعراء مصر ، واطلع على إنتاج الشعراء المصريين فى ذلك العهد ، لم يعجبه إلا شعر المترجم فى رصانة البناء وسلامة التركيب ، وقد ترك من التآليف : « رفع الثام عن أسماء الضرغام » جمع فيه ما ينيف على خمسمائة اسم للأسد — طبع بمصر ، و « مفتاح الأفكار فى النثر المختار » جمع فيه مختار النثر من رسائل وخطب فى الجاهلية إلى هذا العصر[1] ، وهو كتاب جليل الفائدة — طبع بمصر أيضاً . و « مفتاح الأفكار فى الشعر المختار » جمع به مختار الشعر من الجاهلية إلى عصرنا هذا[2] لم يطبع ولم نطلع عليه . وله « ديوان حماسة » من شعر العرب ، استدرك به على أبى تمام ما فاته ، و « مفتاح الإنشاء » — لم يكمله . وأخذ فى أواخر أيامه فى جمع شعره ونثره وترتيبه فى ديوان ، ولا أدرى ما فعل الدهر به .

وكان رحمه الله غريب الأطوار ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، مع صفاء الباطن ، له شذوذ فى أخلاقه يتحمله من عرفه وعاشره . أسمر اللون ، أسود اللحية والشاربين كبيرهما ، أميل إلى الطول ، له هزة و تَخطُّر فى مشيه — لمرض كان أصابه فى ظهره ورجليه .

---

(١) إشارة إلى عصر المترجم — رحمه الله .
(٢) أى عصر المترجم ، وهو عصر المؤلف أيضاً .

ولما انتقل إلى مدارس الأقاليم صار يحضر إلى القاهرة فى فترات ، فينزل عندنا (١) ، ويجتمع به إخوانه وأصدقاؤه فى ليال كنا نحييها بالمطارحات الأدبية وإنشاد الأشعار .

ومات ولم يعقب غير بنتين زوجهما فى حياته . ومن شعره قوله يرثى صديقه محمد بك بيرم ابن الشيخ بيرم التونسى ويعزى أخويه :

لقد مات فى سن الثلاثين بيرم
فإن كان قول فالرثاء المقدمُ
مضى سابقاً سبق الجواد إلى المدى
ولا يدرك الغايات إلا المطهمُ
فتى كان مثل السيف يفرى قرابه
ويعجب منه الناظر المتوسمُ
فتى كان فى حاليه للمجد كاسباً
كباد يرود العشب أو يتجرثمُ
فتى كان مثل الليث طلاع أنجد
وكالفحل يحمى شوله وهو مقرمُ
فما بال هذا الفحل تقدع أنفه
ولم ذلّ ذاك الضيغم المتأجمُ

---

(١) فى دار العلامة المحقق أحمد تيمور (باشا) بدرب سعادة .

وقد كان يرعى عهده وجواره
فلا العهد منقوض ولا الجار مُسْلَمُ
وقد كان مأوى اليتامى يظلهم
إذا السنة الشهباء ظلت تجهمُ
وكان ذوو الحاجات منه بنجوة
إذا ساقهم سيل من الذل مفعمُ
وما كان مجزاعاً إذا الخطب عضهُ
ولا وكلاً يغشاه ما ليس يعلمُ
ولكن أخو جأش وحزم كلاهما
أبرّ من السيف الجراز وأحكم
وما الطودُ ممنوع الذرى هضباته
أنفنَ فلم يفرع فراهن أعصمُ
بنت فوقه الأسد الضوارى على الطوى
زبىً يتقيها الصاعد المتجشمُ
بأثبت ركنا منه يوم عظيمة
وأوفر حلماً والظنون ترجمُ
تسم فى عقباه مَتْنَىْ وظيفة
هى القطر يناوه من الغيث مسجمُ
وسلم تسليم البشاشة جاعلاً
قصارى المطايا أن يقيم المسلم

فما كان إلا أن أناخ ببابه
من البين ركب لايريم مخيمُ
فودع توديع امرئ غير راجع
سجيس الليالى أو يؤوب المثلمُ
ليبك عليه ضارعٌ طوحت به
يد الدهر واستهوته دهياء صيلمُ
يذكرنيه الخير والشر دائباً
إذا زاغ ظلام وصاح مُظَلَّمُ
وتعتادنى ذكراه للضيف كلما
طغت برمة أو مرجل يتهزمُ
فقدناه فقد الروض ماء غمامة
على ظمأ ، والقلب حران أهيمُ
فهل عهده العهد الذى هو راجع
ألا إنما عهد المنايا مصرّمُ
وهل حلمه يوم القيامة حلمه
إذا خف رضوى واستحال يلملمُ
رمته شعوب فاتقاها بصدره
وسهم المنايا فى المقاتل محكمُ
فلم يغن عنه فكره وهو صارم
ولا ذاد عنه عرفه وهو عيلمُ

عفاء على تلك الحياة فإنها
تفاريقُ نهب بين قوم يقسّمُ
فلو كان رد الموت يسطاع لانبرت
كماة لها قرع الظنابيب مغنمُ
إذا الشر أبدى ناجذيه حسبتهم
أسود شرى أظفارها لا تقلمُ
ولكنه الموتُ الزؤامُ إذا عدا
تداعت لِيأتاه زبيدٌ وخثعمُ
متى يرم أشلاء العشيرة أغمضتْ
حذام ولم يغن النطاسى حذيمُ
وليت المنايا أخطأته وصادفت
عِدًى يبتغون الشر إمّا تيمموا
لهم سيرة فى السوء شتى فعالها
ومن ذا يعانى السوء إلا المذممُ
وعا قليل يزجر الدهر طيرهم
فيغدو سنيحاً وهو بالموت أشأمُ
ويطوَون طى الثوب أخلقه البلى
على غِرة، والدهر عرس ومأتمُ
فيا راكب السوداء فى البحر ترتمى
على صفحات الماء والبحر خضرمُ

تمر كما مرت نعاج تعسفت

رمال الفلا واليوم ضحيان يبسمُ

تسير فلا تلوى على ابن طريقة

وترسو كما ذاق الغرارَ المهوِّمُ

إذا أنت ألقيت الرحال بتونس

لدى معشر فى بهرة الحى خيموا

لهم أول فى السابقين وهضبة

من العز شماء الذرى لا تسنمُ

هنالك فانزل عَزَّهم بمحمدٍ

وقلَّ له دمع يراق معندمُ

وقل غاب من ترجون فضل إيابه

فليس لشىء آخر الدهر يقدَمُ

هنالك تلقى الخيل حطت سروجها

وخرٌّ لمنعاه البناء المهندمُ

وتلفى عذارى الحى شقت جيوبها

عليه ودقت بينها العطر منشمُ

وكنتم ثلاثاً فرق الدهر بينكمُ

كأنكم اسم فى النداء مرخمُ

نعم إن ذاك السرّ مازال فيكما

ولاعجب فالحرف فى الحرف مدغمُ

خذا بيد الصبر الجميل فإنه

هو السيفُ لاينبو ولا يتثلمُ

ولاتحفلا للحزن يغشى ، فإنما

رسوم الأسى قفرٌ لمن يتردّمُ

ودوما على الأيام عنوان راحل

طوته النوى طى الكتاب فيختمُ

محمد أكمل

١٢٨٠ — ١٣٤٣ هـ

هو محمد أكمل بن عبد الغنى بك فكرى ابن لطف الله بن حسين الشاعر الأديب الظريف . ولد بالقاهرة ونشأ بها ، واعتنى والده بتعليمه وتهذيبه . ثم أدخله فى مدة الخديو إسماعيل الديوان الخديوى للتعلم كتلميذ ، وكان من كبار كتاب هذا الديوان ، فجود الخط به وألم باللغة التركية . وكان له حدبة بظهره شوهت خلقه ، ورأى والده ألا مطمع فى استخدامه بمنصب لائق لحدبته وقصر قامته ، فاستحسن له طلب العلم بالأزهر ، وكان يرجو أن يكون من كبار العلماء ، فلازم الطلب به ، وقرأ النحو والعلوم العربية على الشيخ أحمد المنصورى ، والشيخ محمد البجيرمى ، وكان أحدب مثله ، وكثيراً ما كان يقعده بجواره فى حلقة الدرس . ثم انقطع عن الطلب ولازم والده ، وكان والده جَمَّاعة للكتب مغالياً فى اقتنائها شراءً واستنساخاً ، ينفق عليها جل ما يصل ليده ، ويحيى الليالى فى مقابلة ما يستنسخه منها وتصحيحه وضبطه . فكان المترجم يعاونه فى ذلك ، واطلع بهذا السبب على كثير من الكتب العلمية والأدبية والدواوين الشعرية ، عاشر من كان يجتمع بوالده من العلماء والأدباء ، وتردد عليهم واستفاد منهم ، وعرف مدة طلبه بالأزهر كثيراً من أدبائه وشعرائه المجيدين — كالشيخ عبد الرحمن قراعة ، والشيخ أحمد مفتاح ، وحفنى (بك)

ناصف وغيرهم ، فاستفاد منهم أيضاً . ونظم الشعر والزجل وأدوار الغناء ، واشتهر بحسن المحاضرة وملاحة التندير وسرعة الجواب وخفة الروح . وكان كثيراً ما يجعل محور تندبره دائراً على حدبته فيأتى بما يضحك الثكلى ، بل كان لايأنف من ذكرها فى شعره ، كقوله من زجل فى الوباء الذى حل بمصر سنة ١٣٢٠ هـ وما فعله الأطباء من الهجوم على الدور وترويع ربات الخدور :

شاعـر ونـاثر زجـال عالْ فن الأدبِ فيـه(١) لعبهْ
لطيف زكى وفهمـه سيالْ ورقتُه مِنَ الله وهبـهْ
مُخلص لإخوانُه ومَيّالْ نادرة زمانُه وله حَدْبَه
مافيهش عيبْ ظاهرْ معروفْ قصيرْ ولكن فيه أقصرْ
واللى يعيش ياما بيشوفْ واللى بيمشى يُشوف أكترْ

ومن ولوعه بحدبته شرع فى جمع كتاب فى نوادر الحدبان وما قيل فيهم من الأشعار وتراجم مشهوريهم ، أخبرنى أنه جمع منه جزءاً إلا أنه لم يتمه .

ونقل والده مدة محمد توفيق الخديو من الديوان إلى المحاكم الأهلية قاضياً وتوفى يوم الثلاثاء ٢٩ المحرم سنة ١٣٠٧ هـ وخلف له ولإخوته ضيعة بالصعيد ، أصاب المترجَم منها (٦٠ستون فداناً) باعها وبدد ثمنها بالإسراف، حتى احتاج للاستخدام بديوان الأوقاف ، بمرتب قليل دون الكفاف ، وعاش فى ضيق ومضض بعد ماتعوده من السعة والرفاهية . وأخذ يتقرب للخديو بنظم التواريخ فى كل عيد واحتفال، وحل وترحال، وينشرها فى صحف الأخبار رجاء أن تبلغه

(١) أى : فى يده

فيأخذ بيده ، فلم يستفد شيئاً وراح تغزله فى الريح . وكان قصر شعره فى أواخر عمره على هذه التواريخ ، فنظم منها الغث والسمين. وكنا إذا قرب عيد أوسفر أو قدوم للخديو لاننتفع به لاشتغاله بالنظم والحساب وإعمال الروية ، فيصير هذا ديدنه فى غدوه ورواحه وقيامه وقعوده ، حتى يمن الله عليه بشىء يرتضيه .

وترك له والده غير الضيعة داراً بسوق الزلط بيعت أيضاً ، وترك خزانة كتب كبيرة قل أن تضارعها خزانة فى نفائس الكتب ونوادر الأسفار ، وهى التى أفنى عمره وماله فى جمعها وأتعب نفسه فى تصحيحها وضبطها وصبغ الورق وصقله لنسخ ما كان يستنسخه منها ، فوق ما كان يتكلفه من السعى فى البحث عنها فى الخزائن المهجورة وعند الوراقين ، واتخذ له فى داره مصنعاً للتجليد واستخدم عدة نساخ أجرى عليهم المرتبات ، فاختصوا بالنسخ له لا يشتغلون لسواه . . . وكان هو وعبد الحميد (بك) نافع من أدباء القرن الثالث عشر يتباريان فى ذلك ويتسابقان . أخبرنى المترجم عن والده أنه بلغه أن تاجراً من الوراقين قدم من سفر بكتب أوصاه عبد الحميد (بك) نافع بجلبها له وبينها ديوان البحترى ، وكان إذ ذاك لم يطبع بل لا يعرف فى مصر إلا باسمه ، فأسرع إليه وبذل له مالا فوق قيمة الديوان على أن يعيره له يوماً وليلة فقط يطالع فيه ، فرضى وأعاره إياه . فلما أتى به لداره أعطاه لمجلده ففك له تجليده ، وأحضر فى الحال عدة نساخ فرقه عليهم كراريس فنسخوه وقابلوه ، ولم يمض اليوم والليلة إلا وقد ردت النسخة الأصلية لصاحبها مجلدة كما كانت . ثم قابله بعد ذلك عبد الحميد (بك) وأخذ يفاخره بوجود الديوان عنده واختصاصه به ، فقال

له : خَفِّض عليك يا أخى، هذا شىء أكلنا عليه وشربنا حتى بجحناه . ثم أخرج له نسخة الديوان من الخزانة !

وبلغه مرة وهو يسمر مع بعض أصحابه أن بعضهم رأى عند فلان الوراق رسالة من الرسائل ، وكان هو يتطلبها من زمن وينشدها فلا يجدها ، فلم يسعه إلا أن قام فى الحال وأخذ يسأل عن دار الوراق من هنا وهناك ، حتى اهتدى إليها بعد ما مضى هزيع من الليل ، فأيقظه من نومه وساومه فى الرسالة بقيمة فوق قيمتها، ولم يمهله للصباح، بل أنزله من الدار وذهب معه إلى حانوته ، ففتحه ليلا وأخرجها له ، ولم يهدأ له بال حتى باتت الرسالة عنده .

فلما مات عرض المترجم كتبه للبيع فبيعت وتفرقت ، واقتنى نفائسها ونوادرها الكونت لندبرج قنصل السويد بمصر . وكان من مستعربى الأفرنج المولعين بجمع الكتب العربية ، وأدركت أنا[1] أواخرها ـ فاقتنيت منها بضعة عشر كتاباً ، منها ماهو بخط عبد الغنى (بك) نفسه ، وبحواشيها آثار التصحيح واختلاف النسخ التى كان يقابلها بها .

وكان أول التقائى بالمترجم فى دار ابن أختى محمود توفيق (بك) وهى إذ ذاك مجمع الأدباء ومحط رحال الفضلاء ، فلما رأيته استغربت شكله واستملحت محاضرته . ثم رأيته يناقش الأدباء ويطارحهم الشعر ، فدنوت منه وكنت صغيراً فى أول الطلب، وقد تعذر علىّ فهم باب أفعل التفضيل وأجهدت نفسى فى درسين

---

(١) إشارة إلى المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا — رحمه الله.

متواليين على تفهمه فلم يفتح علىّ بشىء فيه، فسألته عنه فأوضحه لى بعبارة سهلت علىّ فهمه، فكان بعد ذلك كثيراً ما يقول لى ممازحاً : إذا ذكرت شيوخك فاذكرنى معهم ولاتنسنى !

ثم تأهل ببنت حنفى (بك) وكان لأسرتها نوع اتصال بنا، فاتصلت المودة بينى وبينه بهذا السبب، وازدادت ملازمته لى لما سكن بجوارنا، فكان يزورنى عصر كل يوم، ويبقى حتى نسمر معاً ثم ينصرف . فتارة كنا نحيى الليالى بمسامرات أدبية ومذاكرات علمية أو بمطالعة بعض الكتب . وتارة بمقابلة ما كنت أستنسخه وتصحيحه . وكان لايمل من المقابلة مهما يطل الوقت فيها ويقول : هذا شىء دربنى عليه والدى وعودنى إياه من الصغر .

وأشار علىّ مرة أستاذنا العلامة محمد محمود الشنقيطى أن أطالع « أمالى أبى على القالى » مطالعة إمعان وتدبر، ولم تكن طبعت بعد، فاستنسخت منها كراريس عكفت على مطالعتها . وأخبرت المترجم أنى سأحتجب عن الناس بضعة أيام حتى أستوفى مابهذه الكراريس، فغاب عنى ثلاثة أيام، ثم حضر ومعه هذا الزجل ينحى فيه على الأستاذ وعلى أبى على القالى اللذين تسببا فى انقطاعى عن الإخوان، ويذكر فيه بعض من كان يجتمع بنا :

المذهب

مشتاق قوى ليدى السحنه دى مودّتك حيطى ميطى
أبو على كان لك محنه الله يجازى الشنقيطى

دور

يا سيد احمد يا تيمور ... يالى مانعنا من أنسك
هوَّ ودادك من بنور ... حتى كسرته من نفسك
أهديك سلام يشحن وابور ... يقطع محطات على حسك
هوَّ الكتاب ده م الجنه ... وَلا كلام المجريطى
أبو على كان لك محنه ... الله يجازى الشنقيطى

دور

يكره يجينا الشيخ مفتاح ... يحلى السهر فى القمارى
نفضل ندردش للإصباح ... والشيخ بروحه موش دارى
عبيط خفيف عالم فلاح ... بجوز شوارب هوارى
أوقات كده يبقى زنه ... وآوقات تشوفه رهريطى
أبو على كان لك محنه ... الله يجازى الشنقيطى

دور

إذا مشى تلقاه يجرى ... راخى تملى كيمانه
م الكهربا تشوفه دغرى ... رمح وطرطق إودانه
وإذا اشترى حاجه يورى ... جميع ماجابه لإخوانه
وتبقى زيطه لها رنه ... وآحوال معيشته رطريطى
أبو على كان لك محنه ... الله يجازى الشنقيطى

دور

عبد الملك راجل زنديق ... وابنه صبح منه مخلول
والبابى لاخر بالتحقيق ... جاهل ثقيل دينه محلول

ومذهبـــه مـذهب تلفيق كله خراف من غير معقول
لا فـــرض عنـدهْ ولاسنهْ دَهْ دينْ إياحى شُـــليطى
ابو على كان لك محنه الله يجـازى الشـــنقيطى

دور

أما القـــدورى بنيـــاته أفضانى لـــكن يتـدحدح
غريب ف شكله وصفـاته نـــادر ف بـابـه متلحلح
يـــدّى مـــلاح للورنـــه أو الزغاليـــل الغيطـــى
أبو على كان لك محنه الله يجـازى الشـــنقيطى

دور

أما الدمـــيرى القلعـاوى تيس تركى أبيض وبلحيه
وابـو فصـــاده الشـناوى أعرج مـــــلوى كالحيه
بدقن بيضـا حلفـاوى وزعيـق يبطل عـلى ميـه
غبي وسـخ كالشيخ مَنـه فكره قـــــذاره مخيطى
أبو عـلى كان لك محنـه الله يجـازى الشـــنقيطى

دور

أهـل الأدب ماتـوا بحسرهْ مِ اللى شفوه فى دى الأيامْ
النـاس بقت بينهم نفـره والمسلمين صـارت أخصـام
وكل يـــوم تـلقى نشره تملا قلوب النـاس أوهام
بيقفشـــو لهم عـلى لحنـه بالوهم عايشـين ســـلبيطى
أبو على كان لك محنه الله يجـازى الشـــــنقيطى

دور الاستغفار

يـارب انا مـــذنب عاصى ... محتـاج لعفـوك والغفران
من العذاب أرجـو خـلاصى ... ودخـولى فى جنـة عدنان
أنا نحيـف مـــوش جعاصى ... مليش نجـلد عَ النـــيران
عفـو الكريم أعظم منـه ... عـلى عبيـــده الحفليطى
أبو عـلى كان لك محنه ... الله يجـازى الشـــــنقيطى

دور الختام

يا اهل الأدب راجى منـكم ... غض العيون عن زلاتى
فن الزجـل يروى عنـكم ... أما أنـا مـــوش أدباتى
الله يخـــــلى أفضالـكم ... وانول ســـــمودى لمانى
وأبقى كيده ف طحنه وشنـه ... وافـرح وترقـع زغاريطى
أبو عـلى كان لك محنه ... الله يجـازى الشـــــنقيطى

وإنما يظهر حسن هذا الزجل لمن يعرف المذكورين فيه ، فيطبق ما ذكره عنهم على هيئاتهم وأحوالهم، ومراده بالقدورى والدميرى شخصان كان يلقبهما بهذين اللقبين ، والسبب فى ذلك أننى أطلعته على رسالة عندى جمعها الشيخ أحمد الفحاوى صاحب الخط الحسن المشهور بكتابة لزوم ما لايلزم للمعرى وسماها (بنات أفكار، وعرائس أبكار) فى ألقاب أهل العصر، ذكر بها كنى وألقاباً وضعها لفضلاء أواخر القرن الثالث عشر عبد الحميد بك نافع وإبراهيم

أفندى طاهر الشاعر الرقيق المشهور على سبيل المزاح والدعابة ، فلقبا كل واحد بلقب شاعر متقدم أو رجل مشهور يوافق اسمه هيئة الملقب به أو شيئاً يغلب على أخلاقه وأحواله ، كتلقيبهما مصطفى أفندى المنعوت بكامل بالعكوك لأنه كان قصيراً جداً معوج القدمين ، وتلقيبهما الشيخ محمد الرافعى الكبير شيخ رواق الشاميين بالأزهر وأحد كبار علمائه بملا مسكين لأنه كان نحيفاً وبقوامه بعض احديداب يُرى كأنه تواضع وانكسار ، وتلقيبهما عبد الغنى (بك) أبا المترجم بالأخطل لأنه كان ضخم الجسم ، كبير الهامة .

فلما اطلع المترجم عليها جن بها جنوناً ، وشرع فى وضع رسالة تماثلها فى فضلاء عصره ، وسألنى مشاركته فيها كما فعل ذانك الأديبان ، فامتنعت خشية اللوم ، فانفرد هو بتأليفها ، وأتى فيها بغرائب ذهب أغلبها عن الذهن لطول العهد ، فمن ذلك — تلقيبه للعالم الفاضل على رفاعة (باشا) ابن رفاعة (بك) المشهور : بابن المقفع لنحافته ودخول شدقيه ، وتلقيبه للعالم الفاضل يحيى أفندى الأفغانى : بالقدورى لغرابة شكله وقصر ساقيه تشبيهاً له بالقدر من الفخار ، والقدورى اسم عالم من الحنفية مشهور . وكان الشيخ محمد الحفنى المهدى ابن أخى مفتى مصر الشيخ العباسى المهدى ولعاً بذم الناس ، منقبا عن معايبهم ، لهجاً بها فى المجالس ، لم يسلم منه أحد حتى عمه ، واشتهر بذلك حتى أبغضه عارفوه ، وتحاموا عن الاجتماع به ـ فلقبه : بابن هرمة ، وهى كلمة سب عند العامة ، فقلت له : هذا لايستقيم لك ، لأن ابن هرمة الشاعر بفتح أوله ، فتأفف وقال : لا أجد له لقباً ينطبقُ عليه غير هذا ، فدعنى من شنقيطيتك .

ثم لما فرغ منها سألته عما لقب به نفسه ؟ ففكر وقال : أحسن لقب ينزل علىّ : ابن قنيبة ، ثم تركه وتلقب : بالمقوقس ، وضاعت هذه الرسالة فيما ضاع من أوراقه وأشعاره ، ويغلب على الظن أنه مزقها لأنه وقع له بسببها نفور بينه وبين بعض من لقبهم ، فإنه لما لقب صاحبنا وصاحبه الشيخ أحمد مفتاح لسلامة طويته : بالأبله البغدادى ، غضب منه وكاد يتفاقم الشر بينهما ، وغضب منه صاحب آخر كان قصيراً ممتلئاً يتدحدح فى مشيته كما يتدحدح البط ، لأنه لقبه بابن بطوطة . فأخفى الرسالة لهذا السبب وطوى ذكرها .

وكان رحمه الله مجيداً فى الزجل ، متقناً لصياغة الأدوار التى يتغنى بها ، وأكثر ما كان متداولا منها بين المغنين فى عصره كان من نظمه ، وأما شعره فالإجادة فيه قليلة ، إلا ماضمنه النكت والتندرات العامية . فمن أحسن ما وقفت عليه منه قوله من مرثية فى صاحبه على رفاعة (باشا) :

جزعت وللحر أن يجزعا
ووده صبرى إذ ودّعا
وجادت عيونى على بخلها
وحق لها اليوم أن تدمعا
وروع قلبي النوى بعدما
أمنت ومثلى كم روعا
لحا الله يوماً أشاعوا به
وقالوا أمير العلا شيعا
فما كان أصعب تأبينه
وما كان أسوأه موقعا

وما كان حق البكاء ولكن
فزعت ولابدع أن أفزعا
تجرعت من هوله كل صاب
وغيرى من الناس كم جرعا
ومادار فى خلدى أننى
أرى البدر يرضى الثرى مضجعا
ولكن شأن الزمان عجيب
فما كان أضيع عهداً رعى
يقول النعيّ : علىّ قضى
ولم يدر أن العلا قد نعى
نعى سيداً صيته طائر
حوى الفضل فى شخصه أجمعا
فدكت رواسى الدنىَ بعده
وماد الزمان بما أودعا
وغابت شموس المعارف لما
ذوى غصنه بعد ما أينعا
فقل للخطابة ذوبى أسى
ولا تطلبي بعده مصقعا

وقـــــل للكنابة : لاتحفـل

بمن يتبجح فى المدعى

وقـــــل للعلوم : فقدت أميراً

مضى تاركاً فضـــــله مشرعا

وقال موريا باسم الطبيب سعد (بك) سالح :

ياســـــعد مالك معـرضاً

عنى وقلبى فيـــــك طالح

إنى أتيتـــــك قائـــلا

أنا تائب ياســـــعد سالح

وقال موريا باسم محمد ثابت :

إن كنت فى ريب بصدق محبتى

وسمعت عنى ما تقوَّل شامت

فاعلم فدينك دائماً أنى على

عهـــد المحبة يامحمـــد ثابت

ولما مرضت شقيقتى السيدة عائشة النيمورية وأحست بدنو الأجل، نظمت فى مرضها أبياتاً لتكتب على قبرها ، وتركت مصراع التاريخ لمن ينظمه بعدها ، وهى :

قد كنت عائشة فنوديت ارجعى
للقـــــبر مأوى كل حىّ فان
فأتيت صفر الكف عن مرضاته
ومقـــرة بالعجـــز والعصيان
جردت من ثوب الهدى لكن لى
تاجاً من الإســـــلام والإيمان
ونزلتـــه مستشفعاً بمحمـــــد
وتوســـــلى عفواً من الرحمن
أصبحت ممن زار لحـــدى راجياً
خـــــير الدعا وتلاوة القرآن
لكم البقا إخوان دينى أرخوا

فنظم المترجم التاريخ بقوله : (قبر لعائشة سحا بجنان)

١٠٦ ١٠١ ٨١١ ٣٠٢

١٣٢٠

وله عجائب مما ذهب عن الذهن الآن . ولكثرة ممارسته للتواريخ الشعرية كان يأتى فيها أحياناً بغرائب فى إبراز المقصود بدون حشو ، كقوله فى تاريخ ولادة ولده عبد الغنى: (عبد الغنى بن أكمل) .

ولم يشتهر والده عبد الغنى (بك) بعلم ، بل كان بارعاً فى الكتابة التركية والعربية فقط ، وكان يقرض الشعر أحيانا . فمن ذلك قوله هاجياً الشيخ مصطفى

قشيشة ، مدعيا أنه لم يرد إليه كتباً استعارها منه ، وكان الرجل من الفضلاء ، وكانت له زريبة لتربية البقر يتكسب منها ببيع اللبن ، فقال فيه :

شيخ سـوء بفعله المنكور ... أنسى مَعْناً بحلمه المشهور
عاد الناس بازدياد دهاء ... زاد فى الوقع نغمة الطنبور
واستمال البسيط من لم يطالع ... من خداع القصير فى المسطور
أشعل الذهن فى اللآمة حتى ... أورث الصهر أسوأ المقدور
قل ما يلحظ الصحيح بعين ... غير خلط المنظوم بالمنثور
صار دهراً بصحبتى مستفيداً ... وفر مال من كنزى الموفور
واقتداء بحبك الشىء يعمى ... كان ما صار من خطا المشعور
وتمادى الضلال بضع سنين ... نال منها ماليس بالمحصور
واحتدام الخصام نكران كتب ... شذ فيها عن نهجها المبرور
وانثنى الآن منكراً مستغيثاً ... كافراً نعمتى لدى الجمهور
جعل الله عسره مستديماً ... وثواه الإلهَ فى التنور

وقال فيه أيضاً :

تشرب الخمر للتداوى احتيالا ... لاشفى الله منك للجسم علة
دمت فى منقع الزريبة روثاً ... بك يشتم فى الخياشيم جله

والجلة عند العامة هى روث البقر ، ولا يخفى ما فى القصيدة من الضرورات ، كقوله «أنسى» ولا يستقيم الوزن إلا بحذف الياء ، وقوله وتمادى الضلال فعداه وهو لازم . وغير ذلك .

فلما اطلع الشيخ مصطفى على القصيدة والبيتين طلب من صديقنا الشيخ أحمد مفتاح أن يجيبه على لسانه — فنظم قصيدة وبيتين من البحر والقافية فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٠٤ ، فقال :

لهوى النفس فى اقتحام الأمور
حكمة تستفز لب اللبيب
كل داء يبرا ولو بعد حين
غير داء الهوى وداء الغرور
قف قليلا وأمعن الفكر فيما
أظهرته الغيوب كل الظهور
ظن بعض الرعاع والظن إثم
يورد النفس أسوأ المقدور
أن سيفى لدى الهجاء كهام
وقنانى تلين فى كف زور
فتعامى وج من فيه روثاً
وقبيح بالمرء خبث الضمير

يشير بهذا البيت إلى قول عبد الغنى بك : دمت فى منقع الخ ..

عشت معه على الضغائن سرا
لا أرى منه غير نذل فخور
فانتقى لى بعد انتقالى سطوراً
هو أولى بلفظها المهجور

ظنها الشعر ضـــــلة ليس يدرى
أن دون القريض خوض البحور
إن « عبد الغنى » عبـــــد جهـول
ليس يدرى قبيـله من دَبـير
فيه ماشئت قُلهُ غـــير مالٍ
من ضـلال وخـدعة وفجـور
عرفتـه الإخوان بالخفض حتى
مـــيزته بالخفض والتنكير
فاتقـوه وأخبث النـاس طـرًا
رجـــلٌ تتقيه خـوف الشرور
ورمانى زوراً بنـكران كتب
وبكسبى من وفره المـــوفور
أى وفـر أفاد أم أى كتب
تُبتغى من لدن لئيم حقـــير
حمـل الكتب لا لعـلم ولـكن
لترى النـاس أنه كالحـمير
وانتمى للثقات فى العـــلم حتى
أوهم النـاس أنه ابن كثير

يا عـــــديم الذمام فى كل أمر
وقليـــــــل الرجاء للمستجير
هاك منى عـــــديمة المثـــل أنحت
بمساوٍ على عـــــــديم النظير

وقال :

إن عبد الغنى عبـــد فقـــير
لم ير النـاس فى السفاهة مِثـله
جـــمع الدهر فيـه ضـدين حتى
أبرزته العيون للخلق مُثـلَه

رحم الله الجميع ، وتغمدهم بعفوه وغفرانه .

محمد الإدريسي

١٢٩٣ — ١٣٦٤ هـ

هو الإمام السيد محمد بن على بن محمد بن أحمد بن إدريس . ولد فى صبيا سنه ١٢٩٣ هـ وتلقى العلوم الدينية بمسجد جده بها ، ثم أتى مصر سنة ١٣١٤ وأخذ العلوم الدينية والعربية فى الأزهر الشريف . وكان أيام تحصيله مكبا على الاجتهاد ، مواظباً على الحضور فى حلقات التدريس لدى مشاهير العلماء .

وفى سنة ١٣١٧ هـ زار السيد محمد المهدى السنوسى بالكفرة عن طريق الجغبوب ، ثم عاد إلى الأزهر الشريف فبقى إلى أواخر سنة ١٣٢١ هـ .

وبعد إتمام التحصيل ، توجه إلى دنقله ، وزار قبر عمه سيدى السيد عبد العال الإدريسى ، وبقى هناك مدة . ثم عاد إلى صبيا ، ووصل إليها سنة ١٣٢٣ هـ الموافقة سنة ١٩٠٥ م . فوجد كثيراً من أتباعه وأتباع أبيه وجده متعطشين لطريق يبينه لهم ويسلكونه ، فشرع يبين لهم ما هو الأصلح لدينهم ودنياهم ، وأرشدهم الإرشاد الذى يستنيرون به ، وصار يمهد لهم طرق العدالة والوقوف على حد أحكام الشرع الشريف .

وكان جميع الذين حوله وبعض البعيدين عنه والسامعون بحسن سيرته وعظيم مجده يقصدون إليه للتلقى عنه ، والسير على طريقته المحمودة ، ولم يلبث قليلا حتى وجد أتباعاً وأنصاراً يقولون بقوله ، ويعملون بعمله ، ويسلكون

محامد سيره ، ومحاسن أمره . وهنالك قام الأمير الخطير سيدى السيد محمد بن على الإدريسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسب ما كان عليه آباؤه وأجداده الطيبون الكرام ، فصار حينئذ لدعوته وقع عظيم فى نفوس أهالى تلك الأنحاء ، وهو لايحيد عن الشرع الشريف قيد شعرة . وبينما كان على هذه الحالة التى استحسنها منه كل من شاهد أعماله وسمع بها ، إذ ظهر أناس يناقشونه فى أعماله الحسنة ، حسداً أو من باب جهل حقيقة حاله . ولايخفى على أحد أن من سلك مثل هذا الطريق لابد أن يكون له من يعارضه ، فكانت نتيجة تلك المعارضة وقوع التنافس المؤدى إلى حروب نشأت فى الحقيقة عن سوء التفاهم .

ولما رأى الأمير وأنصاره حرج الموقف ، التزموا طرق المدافعة المطلوبة شرعاً .

ولما كتب له التفوق بكثرة الأتباع ومزيد المحبة والسير الحكيم حفظ المركز الذى وفقه الله إليه . وفى تلك الأيام وقعت الهدنة ، وأمرت الحكومة العثمانية بسحب جيوشها من عسير وتهامة اليمن وتسليم جميع المهمات الحربية إلى الأمير السيد محمد بن على الإدريسى . وبمقتضى الأمر سلم القواد كل ذلك إليه ، وخرجوا وهم شاكرون فضله ، مقدرون حسن إنعامه ومكانته الدينية .

وبعد ذلك مال جميع أهالى عسير وتهامة اليمن إليه ، وأصبح بعد ذلك قائماً بتدبير شئونهم ولم شعثهم ، والمحافظة عليهم ، وسعى السعى الحثيث

لتأمين الطرق ، حتى أصبح الإنسان يسافر فى أى جهة شاء بكمال الطمأنينة ولايتعرض له أحد فى أثناء الطريق ، وضرب على أيدى المجرمين والساعين للفساد ، حتى استتب الأمن كما ينبغى سنة ١٣٤١ هـ

وهو — على جلالة علمه وعظيم قدره وفخامة مكانته — متواضع زاهد ، متمسك بالتقوى .

وقد درج منذ نشأته على حب العلم والأدب وأهلهما ، وكره الظلم والاستبداد . وأعطاه الله من شدة الذكاء وكرم الخلال وعزة النفس والغيرة على الدين والوطن ، بقدر حسن سيرته ، ونقاء سريرته ، وحبه للناس ، وبخاصة الصالحون .

ولقد كان والده سيدى السيد على الإدريسى صالحاً تقيا محبوباً . وأقام بصبيا بعد وفاة والده السيد محمد الإدريسى الذى كان معدوداً من أكابر الأولياء ، وتوفى بصبيا سنة ١٣٢٤ هـ وقد صدق فيهم قول القائل :

إن لله رجالا فُطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

وكان من صفوة العلماء الذين يشار إليهم بالبنان فى مجالس العلم والتدريس . ولم يزل متعبداً حتى إنه ـ بعد وفاة والده ـ انتقل من صبيا إلى الحديدة ، وهى أكبر موانى اليمن ، وأقام فى خلوته الخاصة أربعين سنة لم يخرج منها ، ثم أمر أن يحمل إلى صبيا ، فمكث فيها أربعة أيام ، وتوفى إلى رحمة الله ورضوانه ودفن بجوار والده سيدى السيد أحمد بن إدريس .

أما أبو جده فهو سيدى السيد أحمد بن إدريس الحسنى نسباً ، من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله من السادة الإدريسية ملوك المغرب ، وقد ذكر من تراجمهم فى « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » ما يغنى المطلع عليه

ولد رضى الله عنه ببلدة « ميسور » بالقرب من مدينة فاس ، سنة ١١٧١ هـ . وقبيلته « العرايش » واشتغل من أول عمره بتحصيل العلوم الدينية ، إلى أن برع فيها ، وصار فى شبابه إماماً فى جميع العلوم ، وأذن له فى التدريس ، وحضر درسه أكابر علماء ذلك العهد .

ثم توجه رضى الله عنه سنة ١٢١٣ هـ إلى بلاد المشرق ، قاصداً مكة المشرفة ، بطريق مصر ، ووصل إلى مكة سنة ١٢١٤ هـ ، ومكث بها نحواً من ثلاثين عاماً ، ذهب فى خلالها مرة إلى الصعيد .

وفى عام ١٢٤٤ هـ توجه إلى اليمن ومكث مدة بمدينة زبيد وغيرها . ثم أقام بمدينة صبيا ومكث فيها نحواً من تسع سنين ، وتوفى بها إلى رحمة الله ورضوانه عام ١٢٥٣ هـ وله بها مقام شريف يزار من جميع أنحاء اليمن وغيرها .

وكان رضى الله عنه جامعاً بين فنون العلوم الدينية ، وله اليد الطولى فيها والشهرة التامة وأذعن لفضله الخاص والعام ، وأخذ عنه العلماء الأعلام والجهابذة الكرام ، ومنهم مفتى الأنام وشيخ الإسلام ، العلامة المحقق ، والمحدث البارع المدقق ، سيدى السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل ، مفتى زبيد فى ذلك العصر . وعلامة وقته من الفحول ، الجامع بين علمى المعقول والمنقول سيدى السيد محمد بن على السنوسى الحسنى شيخ الطريقة السنوسية المدفون

بالجغبوب من أعمال طرابلس الغرب . ومنهم العلامة الإمام العارف بالله تعالى مربى المريدين ، الشريف الحسينى سيدى السيد محمد عثمان الميرغنى شيخ الطريقة الميرغنية المدفون بمكة المكرمة ، ومنهم العارف بالله تعالى صاحب الكرامات سيدى الشيخ إبراهيم الرشيدى شيخ طريقة الرشيدية الأحمدية المدفون بمكة المشرفة .

ومنهم العارف بالله تعالى الشيخ محمد المجذوب السواكنى ، من أولياء السودان ، المدفون بها .

ومنهم المحدث شيخ علماء وقته بالمدينة المنورة الشيخ محمد عابد السندى — صاحب الثبت فى الأسانيد .

وكان للسيد أحمد بن إدريس رضى الله عنه غير من ذكر من الخلفاء والأتباع مالا يدخل تحت حصر .

وبهذا يعلم جيدا طيب العنصر الباهر ، ومالآبائه وأجداده من الفخر والفضل الظاهر . ولاشك أنه إذا طاب أصل المرء طابت فروعه — ولاغرو فقد جمع الله لسيدى الأمير السيد محمد بن على الأدريسى أمير عسير وتهامة اليمن ، بين سعادتى الدنيا والآخرة .

عبد الحميد نافع

هو عبد الحميد نافع (بك) .

كان والده خليل أفندى من كبار الأثرياء بالقاهرة ، وكان له قصر كبير فى شبرا تحيط به حديقة فيحاء كبيرة .

وقد نشأ المترجم له فى القاهرة ، وشغف وهو فتى بالأدب ، وأكثر من الاجتماع بشيوخه ، وتلقى منهم الكثير المفيد . وحبب إليه اقتناء نفائس الكتب والمغالاة بها ، فجمع خزانة عظيمة منها شراء واستنساخاً . وكان يعتمد على الشيخ نصر الهورينى — فى مقابلتها وتصحيحها . وكانت له مع المغالين بالكتب من فضلاء عصره نوادر وغرائب فى التسابق لاقتنائها ، وسمع به الوراقون فحملوها إليه من الآفاق ، وهو يسخو عليهم ، ولا يماكس فى الأثمان ، حتى صارت خزانة كتبه يضرب بها المثل . وكان يجاريه فى ذلك عبد الغنى فكرى (بك) ولا يكاد يلحقه مع اشتهاره بالمغالاة بها . ثم اشتغل المترجم بالموسيقى ، وألف فيها رسالة ، وأتقن العزف على القانون ، وأكثر من المطالعة فى كتب الأدب ودواوين الشعر ، ومن مطارحة الأدباء ومناظرتهم . حتى صارت له ملكة أدبية يعتد بها ، وصارت داره مجتمع الفضلاء وشيوخ الوقت وأدبائه ، فكانوا يجتمعون عنده فى الغالب كل ليلة جمعة ، فيجرى بينهم من المطارحات الشعرية والمناظرات العلمية ما ينشرح له الخاطر .

وائتلف المترجم بصاحبه وصديقه إبراهيم أفندى طاهر أحد الشعراء المجيدين ، فعاشا أليفى وفاء ونديمى صفاء ، حتى فرق الموت بينهما. وقد قام بهما أن يلقّبا من كان يجتمع بهما من الفضلاء بألقاب قديمة لأعيان وشعراء مشهورين ، مع مراعاة مطابقة اللقب لهيئة الملقب به أو أخلاقه ، وقد جمع فى ذلك الشيخ أحمد الفحاوى رسالة كبيرة كثيرة الطرف .

وللمترجم من المؤلفات عدا رسالة الموسيقى : « تاريخ أعيان القرن الثالث عشر وبعض الثانى عشر » بيع لما بيعت كتبه . وهو موجود الآن فى « ليدن » بهولندة . كما جمع المترجم ديوان صاحبه صفوت أفندى الساعاتى مختصرا .

ولم يطل به العمر ، إذ مات شاباً فى مدة حكم سعيد . وبعد وفاته ، استولى محمد عارف (باشا) زوج أخته على كتبه ، فكانت له مادة ثمينة فى الكتب التى طبعها بجمعية المعارف ، ثم تشتت وبيعت .

أحمد خيرى

كان أحمد خيرى باشا جركسى الأصل، إلا أنه لم يكن رقيقاً، بل حضر مع والده من بلاده لمصر لتلقى العلم، فنزلا فى زاوية بأول عطفة عبد الله من جهة سوق السلاح. وكان بها نفر من مجاورى الأتراك، وواظب على الطلب بالأزهر، فقرأ على الشيوخ، وساعده ذكاؤه على التحصيل، حتى صار مقرئاً للشيخ المنصورى الحنفى الضرير. ثم حضر المطول على الشيخ العلامة إبراهيم السقاء لما قرأه أول مرة. وكان ممن يحضر معه الشيخ محمد الإنبابى الشهير وإخوانه، فكان الشيخ كلما مرت بهم كلمة فارسية فى المطول سأل المترجم عن معناها فيفسرها، وكان زيه إذ ذاك - زى أهل العلم من الأتراك - الجبة والقفطان، إلا أنه كان يعتم بشقة من الحرير الملون المسماة بالكوفية. ثم اتصل بأولاد أحمد باشا يكن ابن أخت محمد على باشا، وهما منصور وداود، فجعل معلماً لهما، ومن هناك اتصل بحاشية والى مصر عباس باشا، فجعل فى آخر مدته كاتبا بديوانه، ففير زيه وصار من الأفندية، ولما تولى سعيد باشا عرف فضله وقدره، فجعله معلماً لولده طوسون باشا، وأخذ بعد ذلك فى الترقى.

وفى ولاية إسماعيل باشا جعل من كبار كتاب المعية الخ.. وكان وقوراً كثير السكوت لاينطق العوراء. انتقد مرة، مُكاتبة كتبها بالتركية محمد عارف باشا الشهير رئيس جمعية المعارف التى طبعت الكتب بمصر. ثم اجتمع به فى بعض المجالس، فأخذ عارف باشا يقرعه ويسبه من غير ذكر

اسمه ، بل قال : بلغنى أن أحد من تخرج من إسطبل الأزهر انتقد كتابتى . ثم أخذ فى سبه وبالغ ، والمترجم ساكت لايتكلم .

فلما افترقا لامه بعض أصحابه على السكوت ، مع أن التعريض كاد يكون تصريحاً . فقال : رجل سفيه رأيت مداراته ، والإغضاء عنه أولى بى .

ومازال أحمد خيرى باشا فى مدة إسماعيل الخديو فى منصبه (مكتوبجى) أى كاتب السرّ الخاص ، ثم ترقى إلى أن صار مهر داراً ، وبعد الاحتلال نقل من المهر دار إلى رياسة الديوان .

ولم يخل من قول بعض أدعياء الانتقاد : إنه لما تولى المناصب الكبيرة أخذه شىء من أبهتها ، حتى قيل إنه إذا أراد أن يشير بالسلام على أحد لايرفع يده إلا قليلا . وهذه حالة ليست ذات أهمية ، أمام ما سبق ذكره من مداراته وإغضائه عمن تعرض له بالسب وبالغ فيه . . . رحمه الله .

ابراهيم باشا

جاء كبيراً مع والده من بلده ، وأمه هى أم طوسون وإسماعيل وزهرة وناظله ، وكانت أشرف بيتا من بيت محمدعلى، وتزوجت قبله بأحد أبناء الكبار ثم نشزت منه فطلقها وغضب أهلها وأقسموا ألا يزوجوها إلا بشخص منحط عن مرتبتها ، فتزوجها محمد على . ومن يريد الطعن فى نسب إبراهيم يقول إنها تزوجت محمد على وهى حامل من زوجها الأول ، فولدت إبراهيم على فراشه ، فهو ليس بولده ، وهو قول لم يثبت . وبسبب شرف بيتها كانت تتعاظم على محمد على، وهو يحتمل لها ، حتى لما قتل ولدها إسماعيل بالسودان ، وبلغها الخبر، دخلت على محمد على ورمت طربوشه من رأسه ، وأخذت بلحيته وهى تبكى وتصرخ وتقول : من أحل لك الرمى بأولادى إلى تلك المجاهل وقتلهم ؟ وهو لا يزيد على البكاء ويقول لها : أمر الله ، أمر الله . ولما ماتت قال : الآن صرت والى مصر، لأنها كانت تتحكم فيه وفى أموره .

وكان إبراهيم باشا معتلا فى أواخر مدة والده ، وكان يسكن بقصر القبة ، فذهب والده مرة لزيارته هناك ومعه سليم[1] أغا السلحدار ، فقال له فى أثناء الطريق : لقد طال اعتلال إبراهيم ، فلا هو فى حال يرجى معها ، ولا يموت فيستريح ويريحنا . فأبلغها السلحدار لإبراهيم .

---

(١) لعله : سليمان أغا السلحدار .

فلما قابل والده مرة أخرى فاتحه فى ذلك، وقال : ما هو ثقلى عليكم حتى تتمنوا موتى ؟!

فامتعض محمد على، وصار يحلف له أن مبلغه كذاب . ولم يزل إبراهيم معتلا حتى لما تولى وذهب لاستنبول كانوا يرون فى القارورة التى ينقل بها بصاقه معرقا بالدم. ولما تولى انتقل إلى القلعة وسكن بها، وأحضروا له جنداً من الحرس كالعادة . فقال : لاحاجة لى بالحرس ، فقد شهدت عدة حروب(١) ، ولم يكن لى حرس . ومات بالقلعة ، ونزلوا بجنازته ودفنوه فى مقبرتهم التى بجوار الإمام الشافعى . وكان عندهم بين معلمى القصر العالى رجل فارسى اسمه سنجلاخ خطاط مشهور ، فناطوا به كتابة الكتابات على تربته ، واعتنوا بها كثيراً ، فيقال : إنها كلفتهم نحو ثلاثين ألف دينار . ولما تممت أعطاه أولاده الثلاثة ، أحمد رفعت وإسماعيل ومصطفى ، كل واحد مائة كيس كالجائزة ، فلم ترضه ، وسافر لبلاده فمات بها .

---

(١) يحدثنا التاريخ عن حروب إبراهيم باشا وفتوحاته ، وما كان يلهج به : لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً الخ . .